تفسير من هدى القرآن

الجزء الخامس عشر

سورة الحديد

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

/ 1عن جابر الجعفي عن أبي جعفر (ع) قال : " من قرأ المسبحات كلها قبل ان ينام (يعني السورة التي فاتحتها التسبيح مثل الحديد و التغابن و الحشر و الجمعة) لم يمت حتى يدرك القائم ، و ان مات كان في جوار رسول الله (صلى الله عليه وآله. " (

نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢٣١

و روى العرباض بن سارية قال : " ان النبي (صلى الله عليه وآله) كان يقرأ المسبحات قبل ان يرقد ، و يقول : ان فيهن آية افضل من آلف آية. "

نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٣١

الاطار العام

ترتكز اغلبية آيات السورة حول محورين رئيسيين:

الاول :الانفاق في سبيل الله ، من دون تحديد نوع منه ، فقد يتحقق بالانفاق من النفس او من المال او من اي شيء آخر . و يحرضنا الذكر الحكيم على ذلك من خلال منهج واقعي و نافذ هو:

- 1ان الله هو المالك الحق لكل شيء ، و له الولاية التامة خلقا و قدرة و علما و تدبيرا ، و انه الذي يحيي و يميت و اليه ترجع الأمور ، اما نحن فلسنا سوى مستخلفين من قبله فيما ملكنا ، فلا ينبغي ان نرفض امره بالانفاق ، اذ انه هو المالك الحق.

- 2و الانفاق هو الشاهد الصادق على التزام الانسان بالميثاق ، ذلك الميثاق الذي أخذه الله عليه في عالم الذر.

- 3و لماذا يبخل الانسان بالمال و هو لا يبقى له ؟ ! فاما يرحل عنه او ينتقل الغيره . بلى ، قد يستخلف فيه برهة من الزمن ، و لكنه يموت عنه كل أهله ليعود اليه تعالى.

- 4ثم ان الانفاق لا يزيد الله شيئا و هو الغني الحميد ، انما النفع و الضرر يعودان على الانسان نفسه ، فهو ان أنفق نمى ماله ، و بنى مجتمعه ، و صار الى ثواب الله و رضوانه ، اما اذا بخل فلن يحصد الا التلف ، و التخلف في الدنيا ، و الوان العذاب في الآخرة.

و تعالج السورة ايضا قضايا تتصل بالانفاق.

الثاني :العدالة الاجتماعية كهدف تنزلت له جميع رسالات الله ، و سعى من اجله كل الانبياء و الاولياء ، كما ينبغي ان يتحرك لتحقيقه كل المؤمنين الرساليين ، و لا تقوم العدالة الا بالقائد الصالح (رسولا او وليا) ، و النظام الصالح في البعد السياسي و الاجتماعي و الاقتصادي و التربوي ، و بالميزان الذي يشخص المخطىء من المصيب ، و بالسلاح المنفذ للنظام.

و هناك علاقة وثيقة بين محور العدالة و الانفاق في السورة يتمثل في ان الانفاق في سبيل الله يساهم بصورة فعالة في اقامة العدالة و نصرة الحق . او ليس قام الاسلام بسيف علي و مال خديجة ؟

و من هذا المنطلق نهتدي الى افضلية الانفاق و القتال قبل الفتح على الذي بعده.

ان الحركات الرسالية تنشد العدالة و اقامة الحق ، و الامة مسؤولة ان تتحمل مسؤوليتها الحاسمة في دعمها و الوقوف الى صفها بالانفاق نصرا لله و رسله و اوليائه على الظالمين.

له ملك السماوات و الارض

هدى من الآيات

في فاتحة سورة الحديد التي تأمرنا بالانفاق لتحقيق العدالة التي هي هدف رسالات الله ، يذكرنا القرآن بأن ما في السماوات و الارض يسبح لله (فلا يجوز ان نقدس شيئا منها) فهو العزيز الحكيم المالك للسماوات و الارض (و هو غني عن انفاقنا ، و نحن المستفيدون من العطاء) و هو الاول بلا اول كان قبله ، و الاخر فلا يتغير بالازمنة سبحانه ، و الظاهر على كل شيء بالغلبة ، و الباطن العليم بكل شيء .

و قد خلق السموات و الارض في ستة ايام ، شهادة على كمال قدرته ، و واسع علمه ، و حسن تدبيره ، وانه المهيمن على حركة الاشياء و تطورها ، فهو يعلم ما يدخل في الارض من الغيث و المواد و الاشعة ، و ما يخرج منها من الابخرة و النبات ، و ما ينزل من السماء من رحمته عبر ملائكته ، و ما يعرج فيها من ملائكة و اعمال و نيات ، و هو مع خلقه انى كانوا.

و هو المالك الحق للسماوات و الارض ، و اليه ترجع الامور ، فهو المقدر المدبر و اليه المصير ، و اية تدبيره توالج الليل و النهار في الصيف و الشتاء و علمه بذات الصدور.

كل ذلك يحملنا على الانفاق في سبيل الله ، و هو موضوع الدرس التالي.

بينات من الآيات

[1]ان للكائنات شعورا يسبحن عبره بحمد ربهن ، كل بقدره و بلغته ، اذ سواء و عين ذاتهن او بصرن آفاق الخلق فهن يرين تجليات الرب ، و بعجز ذاتها تستدل على قدرته تعالى ، و بزوالها تستدل على بقائه سبحانه ، و بحدوثها تستهدي الى انه القيوم الذي لم يزل و لايزال و لن يزول ، و اما عن الآفاق فهي انى رمت ببصرها ترى آثارا خلقه و تدبيره تعالى ، لذا فالخلق كلهم ينزهونه عن النقص و العيب.

]سبح لله ما في السماوات و الارض [

انه تسبيح قديم قدم كل مخلوق ، اذ يبدا معه منذ اللحظة الاولى ينشاها بارؤها من بعد العدم ، و لكن كيف تسبح الاشياء ربها ؟!

نتصور لذلك معنيين:

الاول :ان خلقة كل شيء تهدي الى نقصه و عجزه و محدوديته ، و ذلك بدوره شاهد صدق على كمال خالقه و قدرته و تعاليه عن الحد و القيد ، و بالتالي شاهد صدق على انه سبوح قدوس متعال منزه عن

اي نقص و عجز و تحديد.

الثاني : ان الامر لا يقف عند هذا الحد ، بل لكل شيء أحساس بقدره يعرفبه الخالق ، و لغة مخصوصة يعبر بها عن معرفته ، فاذا به يسبح له.

و نحن بنظرنا و تفكرنا نهتدي الى التسبيح بالمعنى الاول ، و لكننا نقصر عن فهم المعنى الثاني ، يقول تعالى : " تسبح له السماوات السبع و الارض و من فيهن و ان من شيء الا يسبح بحمده و لكن لا تفقهون تسبيحهم " (١) ، و قال يحدثنا عن حضارة داود (ع) : " و سخرنا مع داود الجبال يسبحن و الطير و كنا فاعلين (2) " ، و الخلق كلهم متساوون تكوينيا في التسبيح لله ، و انما يتفاوتون و يختلفون في النوع الاخر ، و ان احدا لا يستطيع ان ينكر وجود شعور و لغة عند كل شيء ، فما اوتينا من العلم الا قليلا ،و جهلنا لا يغير من الواقع شيئا ، فنحن لا زلنا في البوصة الاولى من طريق ذي آلاف الاميال في مسيرة العلم و المعرفة ، قال ربنا سبحانه : " و ما اوتيتم من العلم الا قليلا " ، و يكفينا عقلا و حكمة ان نعترف بان ما لا يحط به علما قد يكون موجودا فلانعادي ما نجهل.

و لسنا بحاجة الى تأويل " ما في السماوات و الارض " لينصرف الى ما يعقل ، و ذلك لانه يخالف ظاهر اللغة العربية التي اعتبرت " ما " لغير العاقل ، و ما دام الوجود كله يسبح لله فان عدم تسبيح الانسان يعد تخلفا عن عهده التكويني الفطري معربه ، و شذوذا عن واقع الكائنات.

ان من مشاكل البشر انه ينبهر بالطبيعة او بجانب منها ، فاذا به يتخذ ما فيها إلها ، و يغتر بما فيها من ظاهر الزينة و القوة و الابداع ، بينما لو تدبر فيها مليا عرف انها هي الاخرى تسبح بحمد ربها ، فكيف يتخذها شريكا لبارئها ، بل و تتأذى الطبيعة حينما يعبدها احد من دون الله ، ففي الاخبار ان البقر نكست رؤوسها منذ(١) الاسراء / ٤٤.

(2)الانبياء / ٧٩.

عبدها الناس عندما اضلهم السامري ، و لعله لذلك جاءت خاتمة الآية الكريمة تذكيرا بعزة الله و حكمته.

]و هو العزيز الحكيم[

انه كذلك سواء سبحه الخلق او لم يسبحوه ، فهو بذاته عزيز لا يزيده التسبيح عزا ، و حكيم تتجلى حكمته في النظام الدقيق الذي فطر عليه خلقه و حكمه به ، كما تتجلى في تدبيره لشؤونه المختلفة ، و ليس بحاجة الى الاعتراف من قبلنا بحكمته سبحانه ، كما لا تنصرف هاتان الصفتان الى غيره لو اعتقدنا بإلوهيته ، و لعل الحكمة من بيان هاتين الصفتين ان الله لا يدبر الكائنات بقوته و حسب ، بل بالحكمة ايضا ، و انه يحق للكائنات ان يسبحنه لانه تعالى مهيمن عليها بالقوة و الحكمة فهو اهل لذلك.

[2]و تتصل الآيات بعضها حتى الآية السادسة تعرفنا بربنا عز وجل من خلال صفاته و اسمائه و افعاله التي تتجلى في الخليقة و التي تهدينا الى انه يحق علينا تسبيحه ، و انما يشرك الانسان بربه لجهله به تعالى ، اما اذا عرف عظمته و هيمنته المطلقة على الخليقة فسوف تنسف تلك المعرفة كل الافكار و العقد الشركية لديه ، اننا نشرك ببشر امثالنا لانهم اعطوا شيئا من الملك و القوة ، و يحجبنا ذلك عن الاله الحق ، بلى . انهم قد يملكون رقعة من الارض و بعضا من النعيم ، او يكون لهم سلطان على الناس ، و لكن ذلك كله محدود ، لايصيرهم آلهة ، و لا يقاس بما عند الله.

]له ملك السماوات و الارض[

بما فيهما ، و هو حقا ملك واسع مطلق و حقيقي ، اما تملك الناس للاشياء فهواعتباري محدود زمنا لانهم يموتون عنها ، و كما لانه قليل جدا بالنسبة الى ملك الله الذي ينضوي تحته كل الوجود و كيفا لان قدرتهم على التصرف فيه محدودة ، و لله الملك المطلق و القدرة اللا محدودة ، و التي من مظاهرها الاحياء و الاماتة.

]يحي و يميت[

كيف يشاء ، و متى اراد ، لا يمنعه عن ذلك مانع ابدا ، و ليس لسواه هذه القدرة في الملك ، و الهيمنة عليه . و ما دامت حياة الانسان بيد الله فهل هو المالك ام الله ؟ و كيف يملك شيئا من لا يملك حياته . اوليس الانسان يملك ما يملك بحياته التي تمكنه من الحركةو التصرف ؟

و مع ان الحياة و الموت من ابرز مظاهر الملك و الهيمنة إلالهية على الخلق ، الا ان قدرته تعالى ليست محدودة في ذلك حسب ، بل هي مطلقة.

]و هو على كل شيء قدير[

اما نحن فلا نستطيع ان نفعل كل شيء و كيفما نشاء فيما نملك.

] [3]هو الاول و الآخر[

لم يكن مثله احد فهو أزلي ، و حيث تأخر الوجود عنه فهو محدث من صنعه عز وجل ، و تتجلى هذه الحقيقة مرة اخرى حيث يصير الخلق الى العدم و يبقى وجهه تعالى ، و لانه الاول فهو الذي احيا الخلق و اوجده ، و لانه الآخر فهو الذي يميته بقدرته و حكمته ، كما انه الظاهر بلا خفاء ، فالوجود كله ايات تهدينا اليه ، لانه القاهر فوق عباده.

]و الظاهر و الباطن[

ظاهر بأسمائه و صفاته و تجلياته في الوجود ، تدرك ذلك حواس الانسان ، و يراه قلبه و عقله ، و هو باطن بذاته التي لا يعلم كنهها احد من خلقه ، و لكن ذلك لا يعني انه غائب عن الخلق ، بل انه نافذ علمه الى اعماق كل شيء.

]و هو بكل شيء عليم[

سعة علمه كسعة قدرته ، و تكفي هذه الآية تحسيسا للانسان بشهود ربه ، و ردعا له عن اقتحام المعصية . و هناك صلة بين الآيتين " و هو على كل شيء قدير " " و هو بكل شيء عليم " بالآية " و هو العزيز الحكيم " فالعزة بالقدرة المطلقة، و الحكمة بالعلم المطلق ، الذي هو ابرز جوانبها و مقوماتها ، و ربنا بعلمه يقدر و يقضي ، و بقدرته يمضي ما قضاه.

و قد وردت بعض الاخبار في تفسير هذه الآية الكريمة تزيدنا بصيرة بها . ذكر المفسرون دعاء عن النبي) ص) اعتبروه تفسيرا للآية ، و هو قوله : " اللهم انت الاول فليس قبلك شيء ، و انت الاخر فليس بعدك شيء ، و انت الظاهر فليس فوقك شيء ، و انت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين ، و اغننا من الفقر " (١. (

و روي عن الامام الرضا (ع) و هو يبين ان الكلمات تشترك بيننا و بين ربنا اشتراكا لفظيا لا معنويا ، و يستعرض بعض اسماء الله التي تختلف معانيها عما يوجد عندنا من امثالها ، الى ان قال في معنى الظاهر و الباطن:

"و اما الظاهر فليس من اجل انه علا الاشياء بركوب فوقها و قعود عليها و تسنم لذراها ، و لكن ذلك لقهره و لغلبته الاشياء و قدرته عليها ، كقول الرجل:

(1)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢٣٤.

ظهرت على اعدائي ، و اظهرني الله على خصمي ، يخبر عن الفلج و الغلبة ، فهكذا ظهور الله على الاشياء ، و وجه اخر انه الظاهر لمن اراده ، و لا يخفى عليه شيء ، و انه مدبر لكل ما بدأ ، فاي ظاهر اظهر و اوضح من الله تبارك و تعالى ، لانك لا تعدم صنعته حيثما توجهت، و فيك من آثاره ما يغنيك ، و الظاهر منا البارز لنفسه و المعلوم بحده ، فقد جمعنا الاسم و لم يجمعنا المعنى ، و اما الباطن فليس على معنى الاستبطان للاشياء بان يغور فيها ، و لكن ذلك منه على استبطانه للاشياء علما و حفظا و تدبيرا ، كقول القائل : ابطنته ،يعني خبرته ، و علمت مكتوم سره ، و الباطن منا الغائب في الشيء المستتر ، و قد جمعنا الاسم و اختلف المعنى " (١. (

و جاء عن الامام الصادق) ع) شرح و توضيح لمعنى القبل و البعد فقال : " جاء حبر من الاحبار الى أمير المؤمنين (ع) فقال : يا أمير المؤمنين ! متى كان ربك ؟ فقال له : ثكلتك أمك ! و متى لم يكن حتى متى كان ؟ كان ربي قبل القبل بلا قبل ، و بعد البعد بلا بعد ، و لا غاية و لا منتهى لغايته ، انقطعت الغايات عنده فهو منتهى كل غاية " (٢. (

و جاء في خطبة لأمير المؤمنين (ع (يذكر باسماء الله ، و يبين ضمنا معانيها ، ما يلي:

"الذي ليست له في اوليته نهاية ، و لا في اخريته حد و لا غاية . الذي لم يسبقه وقت ، و لم يتقدمه زمان . الاول قبل كل شيء ، و الاخر بعد كل شيء ، و الظاهر على كل شيء بالقهر له " (٣. (

(1)نور الثقلين / ج ٥ ص ٢٣٤.

(2)المصدر ص ٢٣٣.

(3)المصدر ٢٣٥.

و قال ابو يعفور : سألت الامام الصادق (ع) عن قول الله عز وجل : " الاول و الاخر " و قلنا : اما الاول فقد عرفناه ، و اما الاخر فبين لنا تفسيره ؟ فقال : " انه ليس شيء الا يبدأ و يتغير او يدخله التغير و الزوال ، و ينتقل من لون الى لون ،و من هيئة الى هيئة ، و من صفة الى صفة ، و من زيادة الى نقصان ، و من نقصان الى زيادة ، الا رب العالمين ، فانه لم يزل و لا يزال بحالة واحدة ، و هو الاول قبل كل شيء ، و هو الاخر على ما لم يزل ، و لا تختلف عليه الصفات و الاسماء ، كما تختلف على غيره مثلالانسان الذي يكون ترابا مرة و مرة لحما و دما و مرة رفاتا و رميما ، و كالبسر الذي يكون مرة بلحا و مرة بسرا و مرة رطبا و مرة تمرا ، فتتبدل عليه الاسماء و الصفات ، و الله عز وجل بخلاف ذلك " (١. (

] [4]هو الذي خلق السماوات و الارض في ستة ايام]فالخلق اية على عزته و قدرته ، و التقدير " في ستة ايام " اية لعلمه و حكمته ، و مرة اخرى نطرح هذا التساؤل :لماذا خلقهما في ستة ايام ، و هو القادر على خلقهما في اقل من لحظة " و ما امرنا الا واحدة كلمح بالبصر " ؟ قد سبق في سورة الاعراف بان ذلك قد يدل على سنة التكامل في الخليقة حيث يبارك الله فيها و ينميها طورا فطورا ، يوما فيوما ، لحظة بلحظة ، مما يجعل لعامل الزمن تاثيرا كبيرا في العالم ، بتعبير اخر : الايام الستة هي ظرف المخلوق ، و لا بد ان نعرف المخلوقات من خلال ظرفها الزمنيحيث نستلهم ذلك من قوله سبحانه " ما خلق الله السماوات و الارض الا بالحق و اجل مسمى " (٢) مما يوحي بان الاجل المسمى مساوق للحق في انه جزء من حقيقته ، و الله العالم.

(1)المصدر / ص ٢٣٢.

(2)الروم / ٨.

كما ان خلق السماوات و الارض في ستة ايام اصدق دلالة و اوضح شهادة على التقدير و التدبير ، و في

ذلك تفنيد لشبهة القائلين بالصدفة ، فان كان اصل الوجود صدفة فكيف يكون تدبير امرها و تكميل مسيرتها صدفة ؟ ! و بتعبير آخر : عملية الخلق مستمرة و هي شاهدة علىالخالق سبحانه.

و ربنا حيث خلق الخلق لم يعتزله او يتركه سدى ، انما جعله تحت تدبيره و رعايته ، بلى . لقد اركز فيه سننا و انظمة حاكمة ، بل و قدر فيه كل شيء من قبل ان يبراه ، و لكن كانت له اليد العليا و البداء ، لحاجة الخلق اليه ، و لان كل شيء و حتى القوانين و السننلا يقوم الا به تعالى ، و هكذا استوى على العرش.

]ثم استوى على العرش[

و هو رمز القدرة و الملك و التدبير ، يحمله اربعة من الملائكة المقربين ، و اليه يستوي الملائكة يتلقون اوامر الله لهم ، و استواء الله عليه يعني سلطته ، و انه يهيمن على الخليقة و يدبرها ، و لكن ليس تدبيرا اعتباطيا ، بل حكيما قائما على اساس علمه بكل شيء.

]يعلم ما يلج في الارض و ما يخرج منها و ما ينزل من السماء و ما يعرج فيها]و " ما " تدل على الاطلاق ، اي كل شيء يلج في الارض من الغيث و الاشعة و المواد ، و كذلك كل شيء يخرج منها من النبات ، و كذلك كل شيء ينزل من السماء او يصعد اليها من ملائكة الله و اعمال العباد.

]و هو معكم اين ما كنتم[

في بر او بحر ، ظاهرين او مستورين ، كما قال " الم تر ان الله يعلم ما في السماوات و ما في الارض ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم و لاخمسة الا هو سادسهم و لا ادنى من ذلك و لا اكثر الا هو معهم اين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ان الله بكل شيء عليم " (١) و ربنا ليس فقط عليم بظاهر خلقه ، بل هو بصير ايضا بباطنهم ، ينفذ علمه الى لطائف الامور و مغيباتها.

]و الله بما تعلمون بصير[

يعلم ظاهر العمل ، كما يبصر صاحبه ، و يعلم الدوافع الحقيقية عنده ، فقد يكون ظاهره الصلاح و لكن باطنه الرياء و حب الشهرة و المصلحة ، و يكفي بهذه الآية ان تدفعنا الى المزيد من العمل الصالح ، و السعي نحو المزيد من الاخلاص و الانفاق ، فان مصائرنا رهينةاعمالنا ، و ناقد اعمالنا بصير بصير . نعم . قد نخدم الناس او نخدع انفسنا بمظاهرنا و حسن اعمالنا ، و لكن هل نخدع الله ؟ ! كلا..

[6 - 5]و هذه الآيات تعتبر تمهيدا للحديث عن الانفاق ، لانها تعرفنا ربنا عز و جل من خلال صفاته الحسنى ، و منها الغنى ، فهو حيث يدعونا الى الانفاق فليس ليربح علينا بل لنربح عليه ، اذ لا يزيده انفاقنا شيئا.

]له ملك السماوات و الارض[

فما عسى ان يزيد انفاقتنا في ملكه ؟ ! بل انفاقنا لا يكون الا في جزء من ملكه استخلفنا فيه ، فهو اما من الارض ، او من السماء ، و المالك الحقيقي هو الذي خلقهما ، ثم ان ظاهر الامور بايدينا مما يوحي باننا نملك ناصيتها ، الا ان واقعها بيد الله فاليه ترجعالامور ، و كم يدبر العبد امرا ينقضه تدبير الله ؟ و كم يقدر شيئا يقيله(١) المجادلة / ٧.

منه امر الله ؟

]و الى الله ترجع الامور[

و نهتدي من هذا المقطع الى ان المالك الاول هو الله حين ابتدع كل شيء ابتداعا ، و خلقه بعد العدم ،

و انه المالك في المستقبل ، و هو المالك الان ، لانه الاحد ، العالم بكل شيء ، كما أنه القادر على التصرف فيه كيف و متى شاء . إنه الذي يميت و يحيي ، و لك انتلقي ببصرك في آفاق الخليقة ابتداء من نفسك لترى آثار الحكمة و التدبير الالهي المنطبعة في كل شيء ، بلى . قد تنكر دور الارادة الالهية في دقائق حياتك ، زاعما بانك الذي تصنع كل شيء فيها ، و لكن من الذي يحرك ملايين المجرات السابحة في الفضاء بهذا النظام الدقيق ؟ و من الذي يبدل الفصول و الليل و النهار ؟ انه الله.

]يولج الليل في النهار و يولج النهار في الليل[

فاذا ولج احدهما في الاخر اخذ منه و استطال عليه ، و هذا التناقص و التزايد المستمر و المتقابل في الحركة اليومية للارض حول نفسها و بسبب حركتها حول الشمس ينتهي الى تبدل الفصول ، فاذا بالليل يلج في النهار الى الاقصى في منتصف الشتاء ، بينما يلج النهار الى الاقصى في منتصف الصيف ، و يتعادلان في الربيع و الخريف تقريبا.

]و هو عليم بذات الصدور[

ان علمه لا يقف عندما يظهره الانسان دليلا على ما في قلبه ، و علامة على نيته ، انما ينفذ الى ذات الصدور نفسها ، و لعل سائلا يقول : ما هي العلاقة بين شطري الاية ، او بتعبير اخر : ما هي علاقة ايلاج الليل في النهار و العكس بعلم الله ما فيالصدور ؟ و الجواب : ان الاثنين يحتاجان الى اللطف و العلم و الحكمة ، ثم انه تعالى لا يشغله شأن عن شأن ، فتدبيره لشؤون الكون لا يصرفه عن علم ادق الامور ، انما يهيمن على كل شيء ، و ذلك يسير على الله ..كما تحتمل الآية ردا على الذين قالوا بان الله تفرغ للامور الكبيرة كحركة الكواكب و الارض و فوض سائر الشؤون الى خلقه.

امنوا بالله و رسوله و انفقوا

هدى من الآيات

توجهنا هذه الآيات الى الايمان بالله و بالرسول ، و تأمرنا بالانفاق باعتباره من اعظم ثمرات الايمان ، و لما فيه الاجر الكبير ، و هو محك الميثاق الذي اخذ من كل الناس في عالم الذر ، و هو بند من بنود العهد الذي قطعه المسلم على نفسه عند بيعته للقيادة الرسالية .. و لا يحدد القرآن نوعا من الانفاق بذاته ، و ان كان الظاهر هو انفاق المال ، كما لا يدعو الى كمية معينة من الانفاق ، لان الاهم الكيف و ليس الكم ، لذلك نجد تفريقا بين الانفاق استجابة لامر الله و دعوة الرسول اذا كان قبل الفتح و اذا كان بعده ، و التأكيد على ان الاول هو الافضل عند الله ، لانه الاصعب ، اذ يتعرض المؤمن يومئذ لكثير من الصعاب كضغط السلطة التي تعتبر الانفاق من اجل الحق جريمة تستحق العقاب ، و ضغط المجتمع المثبط الذي يعتبره مغرما و سفها ، اما بعد الفتح فتنتفي الكثير من الضغوط ، و ربمايصير الانفاق بابا الى الشهرة ، و تأكيدا على النوع في الانفاق يدعونا ربنا الى قرض حسن في سبيله ، لا لحاجة منهاليه ، و انما لكي يرده علينا اضعافا مضاعفة في الدنيا ، و ليجعله نورا في الاخرة و ثوابا و فوزا عظيما.

ثم ينقل لنا الوحي مشهدا من الاخرة ، حيث المؤمنون و المؤمنات يسعى نورهم بين ايديهم و بايمانهم التي مدوها بالانفاق و القرض الحسن في سبيل الله ، فهم في نعيم الجنة خالدون ، بينما يتخبط المنافقون الذين بخلوا او انفقوا لغير وجهه تعالى في ظلمات و عذاب مقيم ، و هنالك لا يقبل منهم فدية في مقابل الخلاص من العذاب ، ولو كان قدرها ملء الارض ذهبا ، بينما كان بامكانهم ان يعتقوا انفسهم من جهنم بانفاق حسن محدود في الدنيا لوجه الله و طاعة لرسوله و اوليائه ، لكنهم فتنوا انفسهم و تربصوا و ارتابوا و غرتهم الاماني وخدعهم الشيطان.

بينات من الآيات

[7]بعد ان عرفنا ربنا نفسه من خلال صفاته كالقدرة على كل شيء ، و العلم بكل شيء ، و انه الاول و الاخر و الظاهر و الباطن ، و انه الخالق الذي له الملك الواسع و بيده التدبير ، يدعونا الى الايمان به تعالى ، معتبرا ذلك اساس للايمان . اوليس الايمان الحقهو الذي يقوم على المعرفة ؟

]آمنوا بالله و رسوله و انفقوا[

يسال البعض : هل الخطاب موجه الى المؤمنين فهو تحصيل حاصل لانهم مؤمنون ، ام هو موجه لغير

المؤمنين فهو غير جائز لان الامر يلزم المؤمن فقط ؟!

و الجواب : اولا : ان الايمان درجات فيصح ان يكون الخطاب للمؤمنين يدعوهم الى درجة ارفع من الايمان ، و الانفاق المأمور به في الآية هو احد درجات الايمان ، فليس كل المؤمنين منفقين.

و ثانيا : ان الامر بالايمان و الانفاق قائم و ملزم حتى لغير المؤمن ، فان كان مسلما لما يدخل الايمان قلبه فدعوته لذلك جائزة ، و لو افترضناه كافرا فهي قائمة و ملزمة ايضا ، فهذا رسول الله (ص) يدعو الكافرين و المشركين الى التوحيد بما اشتهر عنه : " قولوا لا اله الا الله تفلحوا " ، فلا يعني ذلك ان امره (ص (قبيح ، و لا ان دعوته غير ملزمة ، فالأمر حينما يكون عقليا يلزم كل ذي عقل ، و حينما يكون شرعيا يلزم كل من بلغته الحجة ولو لم يذعن ، و الدليل الى ذلك توعد الله المخالفين لاوامره بالعذاب ،و الامر بالايمان - و من ثم الانفاق - يتسم بالعقلانية ، كما هو مقتضى الشريعة.

و اذا كانت المعرفة مرتكز الايمان فان الايمان مرتكز الانفاق ، اذ لا قيمة لانفاق بغير ايمان ، و لغير وجه الله ، قال تعالى : " ان الذين كفروا لن تغني عنهم اموالهم و لا اولادهم من الله شيئا و اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون * مثل ما ينفقون في هذهالحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر اصابت حرث قوم ظلموا انفسهم فاهلكته و ما ظلمهم الله و لكن كانوا انفسهم يظلمون (1) " ، و الايمان ليس يوجه الانفاق الى اهدافه الصحيحة ، و يجعله ضمن منطلقاته و دوافعه المطلوبة و حسب ، بل هو الذي يعطي الانسان الارادة والقدرة على تجاوز حرص النفس و شحها و سائر الضغوط و الحوافز المعاكسة ، فالمؤمن يعطي في سبيل الله لاعتقاده بان ذلك يؤدي الى النماء ، و الى الجنة ، و الى رضوان الله و هو الاهم ، فلا يعتبر انفاقه خسارة ، بل هو ربح في الواقع و المستقبل ، ثم هب انه لم يحصلعلى نماء في الدنيا فانه سوف يجد اجرا كريما في الاخرة.

و من الحوافز الموضوعية الى الانفاق بالاضافة الى الايمان هو المعرفة الراسخة باننا لا ننفق من عند انفسنا ، انما ننفق من ملك الله الذي استخلفنا فيه ، فلماذا الشح(١) آل عمران / ١٦ . 17 -

ما دام الآمر بالانفاق هو المالك ؟ لذلك يؤكد القرآن قائلا:

]مما جعلكم مستخلفين فيه[

و قد قيل في " مستخلفين " معنيان احدهما : ان الانسان يأتي خلفا لسلف في الملك ، فيكون المعنى : انفقوا من قبل ان يستخلف الله احدا غيركم باماتتكم ، او نقل مالكم اليه ، و الثاني : انكم لستم المالك الحقيقي بل الله ، و انما اذن لكم بالتصرف فيه ،و خولكم صلاحية العمل فيه ، كما لو كنتم خلفاءه فيه ، و كلا المعنيين سواء في التحريض على الانفاق ، و لكن الاول اظهر لقوله تعالى : " و انفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتي احدكم الموت فيقول رب لولا اخرتني الى اجل قريب فأصدق و أكن من الصالحين) " 1) .

]فالذين آمنوا منكم و انفقوا لهم اجر كبير[

اما الذي يؤمن و لا ينفق فان كان امتنع عن الانفاق الواجب فله العذاب ، و ان كان مستحبا فان أجره لن يكون كأجر المنفقين.

[8]و لماذا يرفض الانسان الايمان بربه و هو الذي خلقه و يرزقه و يرعاه ؟!

]و مالكم لا تؤمنون بالله و الرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم]و هذه الدعوة ليست بدعة و لا باطلا ، انما تتفق مع الحق المودع في فطرة كل خلق منذ عهده مع ربه . قال تعالى : " و اذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم و اشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين * او تقولوا انما اشرك اباؤنا من قبل و كنا ذرية من بعدهم(١) المنافقون / ١٠.

افتهلكنا بما فعل المبطلون * و كذلك نفصل الآيات و لعلهم يرجعون " (١. (

]و قد اخذ ميثاقكم ان كنتم مؤمنين [

اي ان كنتم اعطيتهم الميقاق الاول بالطاعة لله و للرسول فانفقوا.

قال البعض : ان ميثاق عالم الذر لا يصلح للتحريض ، لاننا لا نتذكر ذلك الميثاق فكيف يكون حجة علينا ؟ قال عطاء و مجاهد و الكلبي و المقاتلان : يريد حين اخرجهم من ظهر آدم ، و قال : " ألست بربكم قالوا بلى " ، و رد عليهم الفخر الرازي : و هذا ضعيف، و ذلك لانه تعالى انما ذكر اخذ الميثاق ليكون ذلك سببا في انه لم يبق لهم عذر في ترك الايمان بعد ذلك ، و اخذ الميثاق وقت اخراجهم من ظهر آدم غير معلوم للقوم الا بقول الرسول (و مضى يرد على رايهم حتى قال :) فعلمنا ان تفسير الاية بهذا المعنى غير جائز)
(2، و الحال ان الله لم يأخذ الميثاق و يشهد بني آدم على انفسهم الا لكي يستأديه في يوم من الايام عبر رسله و اوليائه و حججه ، و هو مودع في قلوبهم بصورة معرفة و ايمان فطري ، و الشاهد المتقدم من سورة الاعراف ظاهر و ظهير لهذا المعنى.

و يحتمل ان يكون معنى الايمان هو الجانب العملي منه المتمثل في الانفاق ، فيكون المعنى : ان كنتم مؤمنين حقا استجيبوا لدعوة الرسول بالانفاق.

و قال البعض : ان معنى الاية : امنوا ان كنتم ممن تكفيه هذه الشواهد.

[9]و مرة اخرى نتساءل : لماذا يرفض الانسان الايمان ، انه ليس خسارة ، بل هو ربح عظيم ، لانه يخرجه من الظلمات الى النور ، من ظلمات الظلم الى نور(١) الاعراف / ١٧٢ - ١٧٤.

(2)التفسير الكبير عند تفسير الآية.

العدالة ، و من ظلمات العقائد السخيفة التي تحجب العقل عن الحقائق الى نور الحنفية السمحاء التي تثيره الى معرفتها ، و من ظلمات العقد النفسية التي تسلبه لذة الحياة الى نور الوعي ، و كل ذلك يتم برسالة الله الى الانسان.

]هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات الى النور]القرأن يرسم لنا خريطة شاملة متكاملة و صحيحة لجوانب الحياة ، و يحرر العقل و النفس من الافكار الضالة و العقد . أنه يزكي النفس من الحسد و الحقد و سوء الظن و الشك ، و هذه كلها ظلمات ، و في المقابل يزرع فيها الوئام و المحبة و حسن الظن و الالفة ، كما انمن اهم الظلمات التي تستهدف الرسالات الالهية اخراج الناس منها هي الانظمة الفاسدة التي تتسلط على رقاب الناس ، و تمنع الامة من التقدم ، و على الناس ان يعلموا بان الايمان الاصيل ، و الانفاق الذي تدعوهم اليه القيادات و الحركات الرسالية يهدف تحريرهم من تلكالظلمات الى نور دولة الحق و العدل ، و هذا لا شك يكلفهم شيئا من التضحيات ، و لكن ليعلموا انه في صالحهم و لخيرهم في الدنيا و الاخرة . الان الايمان و الانفاق يستهدفان بناء مجتمع متحضر نفسيا و اجتماعيا و سياسيا و اقتصاديا و ثقافيا .. كل ذلك من رافة اللهو رحمته بعباده.

]و ان الله بكم لرؤف رحيم[

بلى .ان الايمان يحملنا بعض المسؤولية ، و نحتاج حتى نلتزم به ان نخالف اهواءنا ، و لكنه ليس مغرما كما يتصوره البعض ، فقد يطالبنا بالانفاق و لكن ليس ليستنفع به الله سبحانه و تعالى ، انما ليعود النفع علينا نحن البشر ، و ذلك لانه يزكي نفوسنا و يربينا ،و يبني مجتمعا متكاملا قويا ، و ينمي اقتصادنا ، اضافة الى كونه يسبب رضى الله و ثوابه في الآخرة ، و قد قال تعالى : " خذ من اموالهم صدقة تطهرهمو تزكيهم بها وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم و الله سميع عليم " (١) ، و قال : " يمحق الله الربا و يربي الصدقات " (٢) ، و قال : " قل ان ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده و يقدر له و ما

انفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين " (٣. (

و لنا ان نلمس حقيقة الرسالة ، و رافة الله و رحمته عن قرب ، لو رجعنا الى الوراء قليلا في الزمن لنقارن بين واقعين في تجمع واحد كان يعيش على شبه الجزيرة العربية ، واقعه قبل الاسلام ، و واقعه بعده ، لقد كان قبله مجتمعا ضعيفا متمزقا عرضة للطامعين و عرضةللتناحر و الحروب ، فأصبح قويا متحدا و رمزا للتحضر ، و قال تعالى مشيرا الى هذه النعمة العظيمة : " و اذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا و كنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها كذلك يبين لكم اياته لعلكم تهتدون " (٤) ، و قالت فاطمة الزهراء (ع) تعكس محتوى هذه الآية و شبيهاتها : " ابتعثه اتماما لامره ، و عزيمة على امضاء حكمه ، و انفاذا لمقادير رحمته ، فرأى الامم فرقا في اديانها ، عكفا على نيرانها ، عابدة لاوثانها ، منكرة لله مع عرفانها ، فأنارالله بأبي محمد (ص) ظلمها ، و كشف عن القولب بهمها ، و جلى عن الابصار غممها ، و قام في الناس بالهداية فانقذهم من الغواية ، و بصرهم من العماية ، و هداهم الى الدين القويم ، و دعاهم الى الطريق المستقيم .. الى ان تقول : و كنتم على شفا حفرة من النار ، مذقة الشارب ، و نهزة الطامع ، و قبسة العجلان ، و موطىء الاقدام ، تشربون الطرق ، و تقتاتون القد ، اذلة خاسئين ، تخافون ان يتخطفكم الناس من حولكم ، فانقذكم الله تبارك و تعالى بمحمد (ص) بعد اللتيا و التي. (5) "

(1)التوبة / ١٠٣.

(2)البقرة / ٢٧٦.

(3)سبا / ٣٩.

(4)ال عمران / ١٠٣.

(5)الاحتجاج / ج ١ / ص ٩٩ - ١٠٠.

[10]فلماذا لا يتبع البشر الآيات و يطبقونها اذا كانت تخرجهم من الظلمات الى النور ؟ هل الظلمة خير من النور ؟ ! أم العذاب خير من رأفة الله و رحمته ؟!

]و مالكم الا تنفقوا في سبيل الله و الله ميراث السماوات و الارض]كل نعمة هي امانة بيد الانسان ، روحه و جسده و ماله و كل شيء ، و يأتي يوم تسترد هذه الامانة منه لتعود الى مالكها و هو الله ، ليسأل كل واحد عن موقفه منها ، " ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم " (١ (، "وقفوهم انهم مسؤولن " (٢) . و لماذا يمسك مال الله و امانته دون امره ، افلا يستحق بعدها الجزاء ؟ " و ماذا عليهم لو امنوا بالله و اليوم الاخر و انفقوا مما رزقهم الله " (٣) ؟!

و كما يختلف الانفاق في سبيل الله عن الانفاق لاغراض اخرى ، بان الاول مقبول مجزي عليه ، و الاخر مردود و ربما معاقب بسببه ، فان الاول يتفاضل على بعضه ايضا ، نظرا لمستوى ايمان صاحبه ، و للظروف و المعطيات المحيطة به ، فالذي ينفق قبل الفتح و الانتصار لاشك انه اعظم درجة و فضلا ، و ذلك لاسباب اهمها:

- 1سبقه الى الحق و العمل الصالح ، و لعل الكثير من اللاحقين انما اهتدوا بسببه ، فهو يصدق عليه حديث الرسول (ص) : " من سن سنة حسنة فله اجرها ، و اجر من عمل بها الى يوم القيامة ، لا ينقصهم من اجرهم شيئا " ، كما انه مصداق لقوله تعالى : " و السابقون السابقون اولئك المقربون " (٤. (

- 2دوره في اقامة حكومة الله في المجتمع ، و هو لا شك فضل كبير ، و الكثير من(١) التكاثر / ٨.

(2)الصافات / ٢٤.

(3)النساء / ٣٩.

(4)الواقعة / ١٠ - ١١.

الانفاق و القتال الذي يلي الفتح انما بفضل الانتصار الذي ارتفع بسببه الحرج ، و صلحت الظروف المضادة ، و الكثير من الناس مستعدون للانفاق في ظل المجتمع المسلم اكثر من استعدادهم للانفاق في ظل الحركة بالذات اذا كانوا يستضعفونها ، و لعله لو لم ينبر لدعم الرسالة اولئك السابقون ما كانت تقوم قائمة.

- 3لان الانفاق و القتال قبل الفتح اكثر صعوبة و تحديا بالنسبة للانسان ، فقد يجر عليه الكثير من الويلات و المشاكل ، اذا عرفه اعداء الرسالة كالانظمة الفاسدة ، و يكفيه فضيلة انه يقاوم به في ظروف اكثر معاكسة و تحديا ، حيث الناس كلهم متقاعسون ، و النبي (ص (يشير الى هذه الحقيقة اذ يقول : " خير الاعمال احمزها " . اما بعد الانتصار و الفتح فقد يكون الانفاق سبيلا الى المجد الاجتماعي .

ان الانفاق قبل الفتح يدل على عمق الايمان ، لان على المنفق يومئذ ان يجتاز ثلاث عقبات : عقبة حب المال ، و عقبة الضغوط السياسية ، و عقبة التحديات الاجتماعية .. كذلك يكون اقدامه على القتال و انفاقه نابعا حينها من روح ايمانية خالصة ، و ليس من اختلاط الدوافع و الدواعي.

]لا يستوي منكم من انفق من قبل الفتح و قاتل اولئك اعظم درجة من الذين انفقوا من بعد و قاتلوا]و لكن لا ينبغي ان يكون هذا التفاضل سببا للتعالي عند فئة ، و لا لليأس و الاحساس بالضعة عند الاخرى ، كما لا يعني ان اللاحقين لا حظ و لا فضل لهم ، كلا..

]و كلا وعد الله الحسنى[

يعني الجنة و الرضا و الجزاء ، و يؤكد القرآن في نهاية الآية ان التفاضل ليسلمجرد الانتماء الى صفوف المجاهدين الرساليين قبل الفتح ، و لا لعوامل ذاتية تنحصر في ذلك الجيل ، كلا .. انما التفاضل بالاعمال الصالحة التي يحيط بها علم الله.

]و الله بما تعملون خبير[

اذ لا يكفي ان يقتات الجيل السابق بأمجاده الغابرة ، و يتوقف عن العمل اعتمادا على ذلك التفضيل ، و لعل في هذه الخاتمة اشارة لطيفة الى موقف الاسلام من صراع الاجيال ، ففي الوقت الذي يعترف فيه بوجود الاجيال بل بتمايزها ، لا يدعوها للصراع ، بل يدفعها باتجاه الالتحام و التعاون و التسابق البناء في ميدان السعي و العمل.

[11]و يجادل البعض : ما دام لله ملك السماوات و الارض ، و هو على كل شيء قدير ، فلماذا يامرنا بالانفاق ؟ و يقول ربنا عن مثل هؤلاء : " و اذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين امنوا انطعم من لو يشاء الله اطعمه ان انتم الا في ضلال مبين " (١) ، كل ذلك تبريرا لتخلفهم عن الحق ، و سعيا للتملص من المسؤولية ، و لكن المؤمنين يدركون غنى الله ، و انه انما فرض الانفاق ليبتلي عباده و يستاديهم ميثاقه بالطاعة له . قال امير المؤمنين (ع) : " اسهروا عيونكم ، و اضمروا بطونكم ، واستعملوا اقدامكم ، و انفقوا اموالكم ، و خذوا من اجسادكم فجودوا بها على انفسكم ، و لا تبخلوا بها عنها ، فقد قال تعالى " : ان تنصروا الله ينصركم و يثبت اقدامكم " ، و قال تعالى : " من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له و له اجر كريم " ، فلم يستنصركم من ذل ، و لم يستقرضكم من قبل ، استنصركم و له جنود السماوات و الارض ، و استقرضكم و له خزائن السماوات و الارض ، و هو الغني الحميد ، و انما اراد ان يبلوكم ايكم احسن عملا ، فبادروا(١) يس / ٤٧.

بأعمالكم تكونوا من جيران الله في داره " (١. (

نعم .انه تعالى لا يحتاج الينا ، و لا لأحد من خلقه ، و ان ما نملك من شيء فهو من فضله و رزقه ، و دعوته لنا الى الانفاق في صالحنا ، فبالانفاق في سبيله نعالج مشاكلنا الاقتصادية و السياسية و الاجتماعية ، و نزكي انفسنا ، و في الآخرة اجر و ثواب عظيمان ،فلنستمع لندائه ، و لنستجب دعوته:

]من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا[

انه لا يريدنا ان ننفق كل اموالنا في سبيله ، انما يريد بعضها فالقرض هو الاقتطاع ، و لعل في الكلمة اشارة الى الصعوبة التي يواجهها الانسان عند الانفاق و التي تشبه القرض . اوليس يريد مخالفة هواه ، و حبه للمال ؟ اذن فليتحمل ، و ليعلم انه في صالحه دنيا واخرة.

و ربنا لا يريد اي انفاق ، انما الانفاق الحسن ، و لا يكون كذلك الا اذا اشتمل على المواصفات التالية:

- 1ان يكون من المال الحلال .. قال أبو بصير عن ابي عبد الله (ع) في قوله عز وجل : " انفقوا من طيبات ما كسبتم " فقال : " كان القوم قد كسبوا مكاسب سوء في الجاهلية ، فلما أسلموا ارادوا ان يخرجوها من اموالهم فيتصدقوا بها ، فأبى الله عزوجل ان يخرجوا الا من اطيب ما كسبوا " (٢) و في قوله تعالى " :و لا تيمموا الخبيث منه تنفقون " قال : " كان الناس حين اسلموا عندهم مكاسب من الربا ، و من اموال خبيثة ، فكان الرجل يتعمدها من بين ماله فتصدق بها ، فنهاهم الله(١) نهج / خ ١٨٣ / ص ٢٦٧.

(2)وسائل / ج ٦ ص ٣٢٥.

عن ذلك ، و ان الصدقة لا تصلح الا من كسب طيب " (١) و قال رسول الله (ص " : (ان الله تعالى طيب لا يقبل الا الطيب " (٢) ، و لعل تأكيد الاحاديث و الآيات على هذا الشـرط لان البعض يحاول تبرير مكاسبه الحرام ، و الالتفاف على الشرع بمختلف الحيل ، كانفاق بعضها في بناء المساجد و الحسينيات ، و المساهمة في المشاريع الخيرية ، و لكن ليعلم هؤلاء ان ذلك لايخلعهم عن المسؤولية امام الله ، و لا يعود عليهم بالنفع.

- 2ان يكون مخلصا لوجه الله ، قال تعالى : " انما يتقبل الله من المتقين " (٣) ، و هذه سيرة اوليائه (ع) : " و يطعمون الطعام على حبه مسكينا و يتيما و اسيرا * انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء و لا شكورا * انا نخاف من ربنا يوماعبوسا قمطريرا " (٤) ، اما اذا انفق الانسان تزلفا الى الطاغوت ، او طمعا في منصب و قضاء حاجة لدى القيادة الرسالية ، او رئاء الناس ولهثا وراء الشهرة و السمعة ، فهذا ليس قرضا حسنا ، انما هو سيء يستوجب العقاب ، لانه قد يكون طريقا الى الفساد و الافسادفي المجتمع ، و على القيادة الرسالية ان تتنبه لهذه النوعية من اصحاب الاموال ، الذين يتظاهرون بدعم الحركة و الدولة الاسلامية ، و لكنهم في الواقع لا يريدون من وراء ذلك الا بلوغ مصالحهم ، و التغطية على اخطائهم و تلاعبهم بالاقتصاد و المجتمع ، و لا ريب انالكلام الحسن خير من هذا النوع من الانفاق ، و قد قال الله تعالى " :الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما انفقوا منا و لا اذى لهم اجرهم عند ربهم و لا خوف عليهم و لا هم يحزنون * قول معروف و مغفرة خير من صدقة يتبعها اذى و الله غني حليم *يا ايها الذين آمنوا لا تبطلوا

(1)تفسير العياشي / ج ١ / ص ١٤٩.

(2)مجمع البيان / ج ٩ عند الآية.

(3)المائدة / ٢٧.

(4)الانسان / ٨ - ١٠.

صدقاتكم بالمن و الاذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس و لا يؤمن بالله و اليوم الاخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا و الله لا يهدي القوم الكافرين " (١ (.

- 3ان يصيب الانفاق موارده المشروعة ، فيكون الانسان اقرض الله بالفعل ، بلى . ليس مطلوبا منه ان يفتش عن عقائد الناس و يحقق معهم ، و لكن ينبغي له ان يعلم اين يضع ماله ، و في الخبر المشهور : " لا تجوز قدما عبد على الصراط حتى يسأل عن خمس (منها :)و عن ماله من اين اكتسبه و فيما انفقه " و قال الله عز و جل " :ان تبدوا الصدقات فنعما هي و ان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم " (2)و قال الامام الصادق (ع) : " لو ان الناس أخذوا ما أمرهم الله به فانفقوه فيما نهاهم عنه ما قبله منهم ، و لو اخذوا ما نهاهم عنه فانفقوه فيما امرهم الله به ما قبله منهم ، حتى ياخذوه من حق ، و ينفقوه في حق. (3) "

بالطبع الثواب يكون على النية ، و الانسان مطالب ان يعمل بالظاهر ، و لكنه اذا اخلص نيته و أصاب هدفه فهو اجزل ثوابا من الذي يخلص و لا يصيب ، بالذات اذا كان ذلك يسبب الاهمال ، فان الانفاق اذا أخطأ موارده قد يؤدي الى حالات سلبية معاكسة اجتماعيا و سياسياو اقتصاديا.

و من اهم الموارد الامام المعصوم و من يخلفه في قيادة المجتمع المسلم او التجمع الرسالي الذي يجاهد من اجل اقامة حكم الله ، و تحرير البلاد و العباد من ربقة الظلم و الفساد و التبعية ، قال الامام الصادق (عليه السلام) : " ان الله لم يسأل خلقه ما

(1)البقرة / ٢٦٢ - ٢٦٤.

(2)البقرة / ٢٧١.

(3)وسائل / ج ٦ / ص ٣٢٦.

في ايديهم قرضا من حاجة به الى ذلك ، و ما كان لله من حق فانما هو لوليه (1) " و في روضة الكافي عن ابي الحسن الماضي (ع) في قوله تعالى : من ذا الذي يقرض الله (الآية) قال : " صلة الامام في دولة الفساق " (٢. (

و تعلم الامة انها كلما دعمت الحركات الرسالية و القيادات الصالحة كلما تقدمت نحو النصر ، و ساهمت في استقلال طلائعها المجاهدة ، فهناك الكثير من المشاريع في طريق الجهاد و النصر تنتظر العون الذي يصيرها واقعا على الارض ، و زوجة الرسول الاكرم خديجة بنت خويلد (عليهما السلام) أسوة حسنة لنا .فلقد وهبت مالها للاسلام ابتغاء مرضاة الله ، و جهادا في سبيله ، و اذا كانت هذه المسؤولية تقع على الامة فردا فردا ، فانها لا ريب تتركز عند الذين انعم الله عليهم بالثروة ، و هم مطالبون امام الله و الامة و التاريخ انيتحملوا مسؤوليتهم و يؤدوا واجبهم في الصراع الحاسم بين الباطل)ممثلا بالانظمة الجاهلية) و بين الحق (ممثلا بالقيادات و الحركات الرسالية الصادقة) ، و ليطمئن كل منفق ان انتصار الحق لن يكون في صالح الامة حسب ، بل في صالحه هو شخصيا ايضا ، و ان المال الذي ينفق منه لن ينقص ، بل سيبارك الله له فيه.

]فيضاعفه[

في الدنيا . و يضرب القرآن مثلا لهذه المضاعفة اذ يقول : " مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة و الله يضاعف لمن يشاء و الله واسع عليم " (٣) ، و قال الامام علي (ع) : " الصدقة تنمي(١) نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢٣٩.

(2)المصدر / نقلا عن الروضة.

(3)البقرة / ٣٦١.

المال عند الله " (١) ، و لا يقف الجزاء عند هذا الحد ، انما تعم البركة جوانب حياته ، و تمتد الى من حوله ، و الى الاجيال من بعده ، قال الامام الصادق)ع) : " ما احسن عبد الصدقة في الدنيا الا احسن الله الخلافة على ولده من بعده " (٢) ، و كذلك يشمل الجزاء الاخرة ، فيكون هناك اكثر و افضل.

]و له اجر كريم[

في مقابل شكر الانسان لربه ، و تصرفه الحسن في نعمه يشكره الله . و نحن نعلم كم تكون العطية كثيرة اذا امتدت بها يد الكريم من الناس ، و لكننا لا نستوعب سعتها و نوعيتها اذا كانت من عند رب العالمين الذي وسعت رحمته كل شيء!

و يجدر بنا في خاتمة تفسير الآية ان ننقل هنا نص كلام العلامة الطبرسي في بيان شروط القرض الحسن:

"قال اهل التحقيق : القرض الحسن ان يجمع عشرة اوصاف : ان يكون من الحلال ، لان النبي (صلى الله عليه وآله) قال : " ان الله تعالى طيب لا يقبل الا الطيب " ، و ان يكون من اكرم ما يملكه دون ان يقصد الرديء بالانفاق ، لقوله : " و لا تيمموا الخبيث منه تنفقون " ، و ان يتصدق و هو يحب المال و يرجو الحياة ، لقوله (ص) لما سئل عن الصدقة : " افضل الصدقة ان تعطيه و انت صحيح ، شحيح ، تأمل العيش ، و تخشى الفقر ، و لا تمهل حتى اذا بلغت النفس التراقي قلت : لفلان كذا ، و لفلان كذا" ، و ان يضعه في الاخل الاحوج الاولى باخذه ، و لذلك خص الله اقواما بأخذ الصدقات و هم أهل السهمان ، و ان يكتمه ما امكن ، لقوله : " و ان تخفوها و تؤتوها الفقراء فهو خير لكم " ، و ان لا يتبعه المن و الاذى ،(١) بح / ج ٧٧ / ص ٢٦٨.

(2)المصدر / ج ٩٦ / ص ٢٦٨.

لقوله " :لا تبطلوا صدقاتكم بالمن و الاذى " ، و ان يقصد به وجه الله و لا يرائي بذلك لان الرياء مذموم ، و ان يستحقر ما يعطي و ان كثر لان متاع الدنيا قليل ، و ان يكون من احب ماله اليه ، لقوله : " لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون "، فهذه الاوصاف العشرة اذا استكملتها الصدقة كان ذلك قرضا حسنا " (١. (

[12]و جزاء الله و اجره لا ينحصر في الدنيا ، ففي الاخرة يكون الجزاء الاعظم و الاعم.

]يوم ترى المؤمنين و المؤمنات يسعى نورهم بين ايديهم]لانهم بعثوا اعمالهم الصالحة قبل ان يرحلوا الى تلك الدار.

]و بايمانهم[

التي ما برحت حتى الرمق الاخير تنفق في سبيل الله حيث تتحول صحيفة اعمالهم التي يحملونها بايمانهم الى نور و بشرى بالجنة ، و النور هو تجل واقعي للاعمال الصالحة ، و الهدى الذي اتبعوه من آيات الرسالة التي تنزلت على الانبياء ، و الامامة الصالحة التي اختاروها و سلموا لها و اتبعوا بصائرها ، قال الامام الباقر (ع) : و هو يفسر الاية : " ائمة المؤمنين يوم القيامة تسعى بين يدي المؤمنين و بايمانهم حتى ينزلوهم منازل اهل الجنة " (٢) ، و لا غرابة في ذلك و ربنا يصف نبيه بانه نور و سراج منير ويقول : " يا ايها النبي انا ارسلناك شاهدا و مبشرا و نذيرا * و داعيا الى الله باذنه و سراجا منيرا * " (٣) . و هذا النور موجود في الدنيا ، و لكن الانسان لا يراه بعينه ، انما يراه البصير بقلبه ، و في الاخرة يكشف الله عنه . و نهتدي من التدبر فيالمقطع

(1)مجمع البيان / ج ٩ / ص ٢٣٥.

(2)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢٤٠.

(3)الاحزاب / ٤٥ - ٤٦.

"يسعى نورهم بين ايديهم و بأيمانهم " انه ينبغي للمؤمن ان لا يكتفي بالنور الذي ينير له الطريق من الخارج ، بل لا بد ان يكون بيده نور و عنده بصيرة الاستفادة من ذلك في الوقت المناسب.

و من دقائق التعبير هنا قوله تعالى " و المؤمنات " دون ان يكتفي بذكر المؤمنين التي هي لغة القرآن الشاملة للجنسين ، و ذلك لكي لا تتصور النساء ان الانفاق و الجهاد في سبيل الله من وظائف الرجل وحده ، كلا .. فهن مكلفات بقدرهن ايضا ، و من الخطأ ان تعتمد المراة على ما يقدمه وليها او اقرباؤها ، فلكل عمله و سعيه ، و نوره و جزاؤه يوم القيامة.

و حيث يتقدمون نحو الجنة و يعبرون الصراط تأتيهم البشارة من الله تحملها الملائكة . و اي بشرى تلك ؟ انها عظيمة حقا.

]بشراكم اليوم جنات[

كثيرة و مختلفة ، باختلاف الاعمال و قدرها.

]و تجري من تحتها الانهار خالدين فيها[

و هذه من افضل نعم الجنة ، نعيم دائم و حياة ابدية.

]ذلك هو الفوز العظيم[

حيث الخلاص من جهنم ، و الوصول الى اعظم تمنيات الانسان الا و هي الخلود ، و كل انسان يشعر في نفسه كم ينغص الخوف من الموت و النهاية عيشة و سعادته ، و قد ضمن الله الخلود للمؤمنين.

و يبدو ان " بشراكم " مبتدا و خبره " جنات " ، كما لو قلنا : أملك السلطة.

[13]اما المنافقون الذين لم يتبعوا الآيات البينات ، و لم يسلموا للقيادة الرسالية و الامامة الصالحة ، و لم يعملوا الصالحات كالجهاد و الانفاق ، او اعملوا ذلك لغير الله ، فهم يظلون في الظلمات و العذاب ، ذلك ان هذه العوامل هي التي تخرج الانسان من الظلمات " ليخرجم من الظلمات الى النور " و حيث لم يتمسكوا بها لم يخرجوا منها ، هكذا يقول لهم المؤمنون.

]يوم يقول المنافقون و المنافقات للذين امنوا انظرونا]اي انتظرونا حتى نستضيء بنوركم.

]نقتبس من نوركم[

و هذا لا يمكن ، لان الانسان هو الذي يرسم مصيره بنفسه ، و " كل امرء بما كسب رهين " (١) ، فان علم الصالحات جنى النور و الثواب ، و ان عمل السيئات جنى الظلمة و العذاب ، ثم ان الآخرة ليست محلا ليستزيد فيها احد عملا ، انما الدنيا هي دار العمل ،و هناك حساب و لا عمل ، لذلك يأتيهم النداء ان عودوا الى الدنيا.

]قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا [

و هذه الآية لا تخص يوم القيامة ، انما تنفعنا في الدنيا ايضا ، و ذلك بأن نعلم بانها الفرصة الوحيدة التي يمكن فيها التغيير و الرجوع عن الخطأ بالتوبة و العمل الصالح ، و ربنا ينقل لنا هذه الصورة من القيامة لنتصور واقع الحسرة فنسعى(١) الطور / ٢١.

لاجتنابها و نحن في الدنيا ، و لان الاخرة دار الفصل فان الله لا يدع للمنافقين فرصة للاختلاط بالمؤمنين ، بلى . ربما استطاعوا في الدنيا ان يخفوا نواياهم و شخصياتهم الحقيقية ، فتعايشوا وسط المجتمع المؤمن متطفلين ، ينتفعون بظاهر الايمان من مكتسبات الامة ،و يغتنمون الفرص لينزوا على مصالحهم و يحققوا اهدافهم ، اما في الاخرة فلا يجدون طريقا الى النفاق.

]فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمه[

من جهة المؤمنين.

]و ظاهره من قبله العذاب[

اي ذات الباب فيه عذاب لكي لا يدنوا منه المنافقون ، و ربما جعل الله في السور بابا لكي يلج منه التائبون ، و المشفوع لهم باذن الله ، و من تطهر بالنار من النفاق ، فهناك من المنافقين من هو في اسفل درك و هؤلاء يخلدون في العذاب ، و هناك من عندهم نسب محدودة من النفاق يعذبون بسببها ثم يدخلون الجنة ، و قد قال الله تعالى : " و يعذب المنافقين ان شاء او يتوب عليهم ان الله كان غفورا رحيما " (١) ، و انما يؤكد الله هذه الحقيقة لتتبين لنا رحمته ، و لكي لا ييأس احد من التوبة بعد التورط في الخطأ ، و لوكان ذلك في مستوى النفاق.

[14]و بعد ان يضرب السور بين الفريقين في الآخرة ينادي المنافقون المؤمنين ، و النداء يختلف عن القول بان القول يعني المخاطبة عن قرب ، اما النداء فهو المخاطبة عن بعد ، او من وراء حجاب و بصوت مرتفع يقصد به المنادي اسماع الطرف الاخر كلامه.

(1)الاحزاب / ٢٤.

]ينادونهم[

نداء استغاثة و حسرة.

]الم نكن معكم[

و هناك يجيبهم المؤمنون بما هو قول فصل : اولا : ببيان حقيقة الانتماء ، بانه ليس مجرد التشدق اللفظي ، انما يتحقق الانتماء بالعمل المتجانس ، و الخط المشترك ، و هذا ما لم يتحقق في واقع المنافقين ، لانهم اوقعوا انفسهم في الفتنة حين اجتنبها المؤمنون، و تربصوا حين اقدموا ، و شككوا حين تيقنوا ، و اغتروا بالاماني حين سعوا ، و استجابوا لنداء الشيطان حين استعاذوا منه ، و امسكوا بخلا و امروا الناس به حين انفقوا . و ثانيا : ببيان مراحل التسافل و الهلاك عند الانسان ، و هذه اوضح آية في القرآن من حيث ترتيبها بالتتالي ، و هي:

المرحلة الاولى : الافتتان ، و الفتن لغويا هو وضع المعدن كالذهب في النار ، و سمي الابتلاء فتنة لان الانسان اثناءه يكتوي بنيران الحوادث و المتغيرات ، و يواجه التحديات و الضغوط الصعبة و الحاسمة بعض الاحيان ، و السؤال : كيف يفتن الانسان نفسه ؟

و نجيب : حينما يريد الانسان ان يكون مخلصا لربه ، بعيدا عن الضلالة و الانحــراف ، يجــب ان يتجنب مضلات الفتن و مظانها ، فلا يدخل فيها و لا يتفاعل معها ، انما يكون كما نصح امير المؤمنين (ع) : " كن في الفتنة كابن اللبون ، لا ظهر فيركب ، و لا ضرع فيحلب " (١) ، فلا يسافر في البلاد التي تصرعه فيها الفتن ، او يقع فيها بيد الظالم ، و لا يقرأ او يتصفح الكتب و المجلات التي تضله ،(١) نهج / حكمة ١ .

و لا يدخل في الصراعات السياسية و الاجتماعية التي تضر بدينه ، و قال الامام علي (ع " : (لا تقتحموا ما استقبلتم من فور الفتنة ، و اميطوا عن سننها ، و خلوا قصد السبيل لها " (١) ، و هذا هو حال المؤمن . انه يحتاط لدينه ، و يمشي في الارض كما يمشيالمقاتل في حقل الالغام ، اما المنافق و الكافر الذي يبحث عن المغانم الدنيوية فانه يقتحم الفتن ، و يخوض فيها خوضا ، لهثا وراء الدنيا ، كما تبين الاية (٢٠. (

]قالوا بلى ولكنكم فتنتم انفسكم[

اي ادخلتموها في الفتنة بارادتكم ، بهدف اللهو اللعب و الزينة و التفاخر و التكاثر في حطامها و ملذاتها ، و هناك فرق بين من يتعرض للفتنة عن غير ارادة ثم يتبع منهج الاسلام في التعامل معها او يدخل نفسه ليقاومها ، و بين من يدخل نفسه في الفتن بارادته لا ليتحداها ، انما ليكون غرضا لها ، و لتكون الدنيا و الهوى غرضه من دخولها . و لعل الاغترار بالدنيا اظهر مصاديق فتن النفس ، و في الكلمة ضلال لمعنى اضللتم ، تشابها مع قول الله لنبيه : " و احذرهم ان يفتنوك عن بعض ما انزل الله اليك " (٢) اي يضلوك.

المرحلة الثانية : التربص.

]و تربصتم[

بتسويف الالتزام بالحق ، و انتظار التغيير في المستقبل ، ذلك ان الانسان مهما توغل في الانحراف و دخل في الفتن ، فان الله يبين له الحق ليقيم عليه الحجة ولو في(١) غرر الحكم.

(2)المائدة / ٤٩.

لحظات ، اما بيقظة الضمير او بموعظة داعية ، او من خلال اصطدامه بمشكلة تنبهه الى خطئه ، و لكنه في الغالب لا يلزم نفسه الحق مباشرة ، انما يسوف التوبة ، و يستمر في الفتنة حتى تفوته الفرصة ، و الامام علي (ع) يحذر من هذه الحالة اذ يقول : " فاتقى عبدربه ، نصح نفسه ، و قدم توبته ، و غلب شهوته ، فان اجله مستور عنه ، و امله خادع له ، و الشيطان موكل به ، و يزين له المعصية ليركبها ، و يمنيه التوبة ليسوفها ، اذا هجمت عليه منيته اغفل ما يكون عنها ، فيالها حسرة على كل ذي غفلة ان يكون عمره عليه حجة ، وان تؤديه ايامه الى الشقوة " (١. (

المرحلة الثالثة : الارتياب و الشك .

]و ارتبتم[

ان الله يبصر الانسان بالحق ، و يبين له الخطأ الذي هو عليه ، فان اقدم على التغيير اهتدى ، و الا فان التربص يحول يقينه الى شك ، و الامام علي (ع (يقول : " لا تجعلوا علمكم جهلا ، و لا يقينكم شكا ، اذا علمتم فاعملوا ، و اذا ايقنتم فاقدموا "(٢) ، و الانسان حينما يقدم عمليا على الالتزام بالحق تتعمق قناعته به ، قال تعالى : " و الذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا (3) " ، و في غيره هذه الصورة يبدا يشكك نفسه ليتخلص من وخز الضمير و ملامة النفس اللوامة ، فاذا نصحه اخوانه بالاوبة الى هذهالصورة اخذته العزة بالاثم ، و انكر الحق ، و قال كما قال الكافرون للذين امنوا : " لو كان خيرا ما سبقونا اليه " (٤) ، و هذه الصفة تنفي انتماءهم للمؤمنين لقوله تعالى بالحصر : " انما المؤمنون الذين

آمنوا بالله و رسوله ثم لم يرتابوا(١) نهج / خ ٦٤ / ص ٩٥.

(2)نهج / حكمة ٢٧٤.

(3)العنكبوت / ٦٩.

و جاهدوا بأموالهم و انفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون " (١) ، و ادعاء المنافقين انهم من المؤمنين و معهم مجرد محاولة لالصاق انفسهم بهم و التخلص من العذاب ، و الا فهم لم يؤمنوا بالله و لا برسوله و لم يستجيبوا لدعوته المتمثلة في الايات البيناتالمنزلة على رسوله (ص) فبقوا في الظلمات .

المرحلة الرابعة : الاغترار بالاماني ، ذلك ان الحق واضح مبين تتلاحق امام الانسان اياته ، و له ثقل عظيم على الواقع و منافع لا تحصى ، و ينسجم مع فطرة الانسان و سنن الله في الخليقة ، و الانحراف عن مثل ذلك يتطلب جهدا ، و لا يكون الا بوسائل ، و من وسائلهالغرور بالاماني التي تتلاحق في وعي المنحرفين كشلال اسود لا يكاد المبتلى به يقدر على مراجعة قراراته و التدبر في عواقب اموره.

ان الشك و التردد اما يحسمه الانسان باتجاه الحق من خلال التوبة و العمل ، و الا فانه سيبقى على الباطل حتى يوافيه الاجل ، و تضيع منه فرصة التغيير ، بسبب الاماني التي ينفخ فيها الشيطان ، كالتشبث بالقشور و بعض الاعمال الجانبية التي يسعى البشر لتبرير اخطائه الفادحة بها ، و من الاماني ايضا النظرة الخاطئة لغفران الله ، و الاعتماد على شفاعة الاولياء ، و لذلك حذر ائمة الهدى شيعتهم من المنى ، قال الامام علي (ع) : " و سابقوا الى مغفرة من ربكم من قبل ان يضرب بالسور ، باطنة الرحمة و ظاهره العذاب ، فتنادون فلا يسمع نداؤكم ، و تضجون فلا يحفل بضجيجكم " (٢) ، و قال الامام الصادق (ع " : (تجنبوا المنى فانها تذهب بهجة ماخولتم ، و تسصغرون بها مواهب الله جل و عز عندكم ، و تعقبكم الحسرات فيما و همتم به انفسكم " (٣) ، و انما ينال ما عند الله بالعمل و السعي ، قال تعالى : " و ان

(1)الحجرات / ١٥.

(2)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢٤١.

(3)المصدر / ص ٢٤٢.

ليس للانسان الا ما سعى " (١) ، و التمني يوقف مسيرة الانسان باتجاه التغيير و العمل ، لانه يستبدل السعي بالاحلام و الوهم ، و ربنا يستنكر على المنافقين و الكافرين تمنياتهم اذ يقول : " ان يتبعون الا الظن و ما تهوى الانفس و لقد جاءهم من ربهم الهدى * ام للانسان ما تمنى " (٢) ؟! !

]و غرتكم الاماني[

اي خدعتكم ، و الاماني هي الاحلام و الظنون التي يصنعها الانسان بخياله المنبعث من شهواته ، و الذي يدخل في هذا النفق قد لا يتخلص منه ، بل يبقى في غروره حتى الموت ، و هذا ما صار اليه المنافقون.

]حتى جاء امر الله[

اي نصرة المؤمنين ، او اجله الذي لا تأخير فيه ، و حينها لا تنفع التوبة ، فاذا جاءت المنية بطلت الامنية ، و قبل ان يختم ربنا الاية يشير الى دور الشيطان في خدع الانسان الذي يتمثل في تزيين المعاصي ، و تأكيد الامنيات في النفس ، و ليس له سلطان على احد ،و في الدعاء بعد ان يشكو الامام عدوه الاول

الى الله و هو النفس يقول : " الهـي اشكو اليك عدوا يضلني ، و شيطانا يغويني ، قد ملأ بالوسواس صدري ، و احاطت هواجسه بقلبي ، (يعاضد لي الهوى) ، و يزين لي حب الدنيا ، و يحلو بيني و بين الطاعة و الزلفى . (3) " ان دوره الاساسي هو المعاضدة و الاعانة على الانحراف ، و تأكيد النصوص الاسلامية على هذه الحقيقة (و ذكره في هذه الآية في صيغة الاستدراك) كل ذلك ياتي لكي لا يعتبر البشر وساوس الشيطان تبريرا(١ (النجم / ٣٩.

(2)النجم / ٢٣ - ٢٤.

(3)الصحيفة السجادية / مناجاة الشاكين.

للانحراف و الضلالة ، و انه مجبور عليها.

]و غركم بالله الغرور[

يعني الشيطان انسيا كان او جنيا . " و الغرور " صيغة مبالغة ، تدل على ان ذلك عمله و ديدنه ، و لا ريب ان الاعلام المضلل الذي ينشر ثقافة الفساد كتابة صورا و صوتا ، و كذلك الانظمة الفاسدة التي تركز حب الدنيا و اتباع الهوى في المجتمع ، هما من ابرز مصاديق هذه الآية الكريمة ، كما اصدقاء السوء من مصاديقها.

[15]و كم تكون حسرة الانسان اذا صار في الدنيا غرضا للفتن ، و فريسة للاماني و همزات الشيطان ، و عاش بينهما متربصا مرتابا حتى يجيء اجله ، و تضيع الفرصة قبل ان يخلص نفسه من النار ، ليصير الى بئس المصير ! انه يبخل بالمال في الدنيا ، و لكنه يتمنى لو ان له ملء الارض ذهبا و فضة يفتدي به نفسه يوم القيامة ، " ولو ان للذين ظلموا ما في الارض جميعا و مثله معه لا فتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة و بدا لهم من الله مال يكونوا يحتسبون * و بدا لهم سيئات ما كسبوا و حاق بهم ما كانوا به يستهزؤون) "
(1نعم . هناك تتبدد ظنونهم و امانيهم التي لا تغني من الحق شيئا . و هب انهم كان لهم ما في الارض و مثلهم و ارادوا فدو انفسهم فانه لا يقبل منهم ، و يأتيهم النداء بان الدنيا هي دار العمل و لم تعملوا .

]فاليوم لا يؤخذ منكم فدية و لا من الذين كفروا مأواكم النار [في مقابل الجنة التي يفوز بها المؤمنون و المؤمنات . و مفارقة اخرى ان ولي المؤمنين هو الله و الانبياء و الاولياء و الصالحين الذين يتقدمون بهم الى الجنة نورا يسعى بين(١) الزمر / ٤٧ - ٤٨.

ايديهم ، اما المنافقون فلا يجدون وليا و لا نصيرا و لا مأوى الا النار ، و حيث يبحثون عن اوليائهم الذين اتبعوهم في الدنيا من الظلمة و الشياطين فيأتيهم الجواب :

]هي مولاكم[

انهم رفضوا دعوة الله " آمنوا بالله و رسوله " ، اذ نافقوا بدل الايمان ، و اتبعوا القيادات الضالة بدل الطاعة للرسول ، و حيث يقال ان النار هي مولاكم يعلمون عين اليقين بأنهم اذا تولوا الظالمين انما تولوا النار.

]و بئس المصير[

و هذا المقطع يقابل قوله تعالى عن المؤمنين : " ذلك هو الفوز العظيم " ، و اي مصير اسوأ من ظلمات القيامة ، و عذاب النار ، و سخط الرب ؟ ! و هذا الاخير اشد عذابا من كل شيء ان الانسان يصير غرضا لغضب الله ، و بعيدا عنه ، و في الدعاء : " فهبني يالهي و سيدي و مولاي صبرت على عذابك فكيف اصبر على فراقك ، و هبني صبرت على حر نارك ، فكيف اصبر عن النظر الى كرامتك .. و لأبكين عليك بكاء الفاقدين ، و لانادينك اين كنت يا ولي المؤمنين " (١. (

و ما دامت الفدية لا تؤخذ ذلك اليوم فلنقدمها الان ، و نكون من المتقين الذين صيح بهم فانتبهوا و علموا ان الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا ، و " صبروا اياما قصيرة ، اعقبتهم راحة طويلة ، تجارة مربحة يسرها لهم ربهم ، ارادتهم الدنيا فلم يريدوها ، واسرتهم ففدوا انفسهم منها " (٢) بينما اراد المنافقون الدنيا ، و بقوا في اسرها حتى الاخير.

(1)دعاء كميل للامام امير المؤمنين علي)ع. (

(2)نهج / خ ١٩٣ / ص ٣٠٤.

ان المتقين و المؤمنين استجابوا لله و للرسول اذ قال : " يا ايها الذين امنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم * تؤمنون بالله و رسوله و تجاهدون في سبيله باموالكم و انفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكم و يدخلكم جنات تجري من تحتها الانهار و مساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم " (١) و المتدبر يكتشف العلاقة الوثيقة في العبارات و المعنى بين هذه الآيات و آيات هذا الدرس من سورة الحديد.

(1)الصف / ١٠ - ١٢.

وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور

هدى من الآيات

اذا كان المنافقون يتورطون في الضلال و الانحراف الذي يستمر معهم حتى النهاية ، بسبب نفاقهم و نفوسهم المريضة ، فاذا بهم يفتنونها ، و يتربصون ، و يرتابون ، و تغرهم الاماني ، و يتسلط عليهم الشيطان ، فيصيرون الى بئس المصير ، فان المؤمنين في خطر آخر متمثلفي قسوة القلب بسبب طول الأمد حيث يفقدون جذوة الايمان ثم ينتهي بهم شيئا فشيئا الى تحول خطير يلخصه القرآن بكلمة (الفسوق) ، اي الانحراف عن الطريق السليم ، و بسبب الفسق و الخروج عن اطار القيم الربانية و التعاليم القرآنية فان الدنيا تتزين في اعينهم فيتخذونها لعبا و لهوا و تفاخرا و زينه و تكاثرا في الاموال و الاولاد ، بدل ان يجعلوها ميدانا للتسابق الى الخير ، و يستبدلونها بالاخرة بدل ان يجعلوها مزرعة للمستقبل ، و اذا اصابت احدهم مصيبة اكدت عنده اليأس و الاسف ، و اذا اوتي خيرا و نعمة تشبث بالدنيا بصورة اكبر.

و نتيجة لعاملي اليأس و حس الدنيا تجده يبخل بالانفاق في سبيل الله ، لاعتقاده بانه لا يغير شيئا او يضر بدنياه ، و لا يكتفي بذلك بل يتسافل دركا آخر الى الحضيض بمحاربته الانفاق ، و دعوته الآخرين للبخل ، و هكذا ينتهي اليأس الى الفسوق و التولي عن الحق ،و يحدث انقلابا خطيرا و جذريا في حياة الانسان ، من الايمان الى التولي ، كما حدث لأهل الكتاب ، الذين بداوا بحركة الهية يتزعمها الانبياء من اولي العزم و غيرهم ، و ايمان صادق مخلص ، ثم انتهوا لما طال عليهم الأمد و نخر فيهم اليأس الى حركة و زعامة فاسقة ، واهداف خبيثة كمحاربة المؤمنين ، و استغلال الشعوب و ظلمهم ، و نحن نرى الان كيف ان زعامة النصرانية (الفاتيكان) و زعامة اليهودية) الكنيست) يخططون جنبا الى جنب المؤسسات الاستكبارية للقضاء على الاسلام ، الذي كانوا ينتظرونه يوما من الايام على أحر من الجمر ، و لظلم البشرية التي جاءت كتب التوراة و الزبور و الانجيل لهدايتها وسعادتها ، و الامام الصادق (ع) يشير الى ذلك الانحراف في رواية سوف نأتي عليها في البينات.

اولا : ما هي حقيقة الدنيا ؟

لقد اختلفت البشرية في الاجابة على هذا السؤال الحساس الذي يراود فردا فردا

منا الى مذاهب عديدة : قال المثاليون ان الدنيا لا واقع لها و ما هي الا خيال ، و ذهب المتصوفة الى ان الدنيا شر محض ، و ان الجسم سجن الروح ، و بالتالي فان وظيفة الانسان في الحياة هي السعي الحثيث و المستمر لبناء الروح على حساب الجسد ، و لا بد لذلك من احتقار الدنيا و تجنب ما فيها لانها

تغذي شهوات النفس المنبعثة من حاجات الجسم ، الأمر الذي يشد الروح الى التسافل ، و يمنعها من التسامي في آفاق الملكوت المعنوي ، او الوصول الى رضوان الله و الجنة ، و قال الماديون ان الدنيا وجدت بالصدفة فليس بعدها من حياة و لا مسؤولية ، انطلاقا من الكفر بالغيب ، و عليه فان السعيد فيها من اطلق لنفسه العنان يتلذذ من نعيمها ما يشاء ، و على هذا المذهب اكثر البشرية ، بالذات اذا اعتبرنا الموقف العملي في الحياة هو المقياس.

اما الرسالات الالهية فهي تختلف عنهم جميعا ، حيث اعتبرت الحياة الدنيا مرحلة تتوسط حياة الذر، و الحياة الآخر ، و حيث كان الانسان طاهرا و نظيفا و قد قطع على نفسه عهدا و ميثاقا " و قد اخذ ميثاقكم " بان يسلم لربه ، فانه يجب عليه المحافظة على ذلك الطهر بالايمان بالله و الاستجابة لدعوة الرسول ، لينطلق نحو الآخر و يبلغ الجنة من عند الله و الرضوان.

ان الانسان لن يبقى في الدنيا و لن تتوقف مسيرته بها ، انما ينتقل الى سفر طويل ينتهي به الى مقره الابدي ، فعليه ان يكيف نفسه وفق هذه الحقيقة ، فلا ينسى ذلك السفر الحتمي ، فيتعامل مع الدنيا و كأنها دار البقاء ، و لا يدع استعداده لتلك الرحلة الشاقة ، فاذا جاءت ساعته و حل اجله و هجمت منيته ، و ليستمع الى نصيحة امامه امير المؤمنين (عليه السلام) حين يخاطبه فيقول : " اما بعد فان الدنيا ادبرت ، و اذنت بوداع ، و ان الآخرة قد اقبلت و اشرفت بأطلاع ، الا و ان اليوم المضمار ، و غدا السباق ، و السبقة الجنة ، و الغاية النار ، افلا تائب من خطيئته قبل

منيته ، الا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه ، الا و انكم في ايام امل من ورائه اجل ، فمن عمل في أيام امله قبل حضور اجله فقد نفعه عمله ، و لم يضرره اجله ، و من قصر في ايام امله قبل حضور اجله فقد خسر عمله ، و ضره اجله " (١. (

ساعات الدنيا خير من ساعات الاخرة- :

و بالرغم من ان ظاهر التعريف بالدنيا يحقرها في نفوسنا ، لكن ربنا لا يريد من هذا التعريف ان يحط من قدرها لكي ننصرف عنها انصراف المتصوفة ، فهي ذات أهمية لكل انسان ، لانها دار تقرير المصير الابدي ، و حينما يسأل الامام علي (عليه السلام) ايهما افضل ساعة من ساعات الدنيا أم ساعة من ساعات الآخرة فانه يجيب : ساعة من الدنيا خير من ساعات في الآخرة ، لانه يربح بساعة دنيوية الاف الساعات ، و ربما اشترى بها الخلود في الجنة كالحر بن يزيد الرياحي ، الذي لم يكن بين توبته و شهادته الا لحظات ، و انما اراد الله ان يبين لنا طبيعتها و طبيعة الانسان حينما يحبها و يتخذها هدفا ، دون مرضاة الله . و هذا يتضح من نهاية الآية ، و علاقتها بالتي تليها حيث الدعوة الى التسابق نحو الخيرات ، فهو تارة يتخذها هدفا فلا قيمة لها ، انما هي متاع الغرور ، و تارة اخرى يتخذها وسيلة وميدانا للتسابق الى مغفرة الله و الجنة ، فيسخر كل ما يملك من نعيمها لهذه الغاية ، فهي عند ذلك ذات قيمة عظيمة.

ان الله يؤكد للمؤمنين - بالذات الفريق الذين ضعف ايمانهم نفسيا ، فما عادوا يخشعون لذكر الله و آياته بالكيفية اللازمة ، و عمليا ، فما عادوا يسلمون لاوامر القيادة بالانفاق مثلا ، فصاروا على شفا جرف هار من القسوة و النفاق بسبب اليأس من الانتصار لتأخره، و بسبب الانصراف الى الدنيا بدل الاخرة - يؤكد لهم(١) نهج / خ ٢٨.

بانها ليست سوى ميدانا للعب ، و للهو ، و الزينة ، و التفاخر ، و التكاثر ، و بالرغم من ان هذه الحقيقة ليست غائبة عن اذهان المؤمنين عموما الا انها لم تتحول من الفكـرة الى وعي يهيمن على النفس ، و بتعبير آخر لم تتحول العبرة الى موعظة عملية ، و انئذ ما الفرق بين الذي يجهل وجود لغم في طريقه فينفجر فيه ، و بين الاخر الذي يحتـمل ذلك او يـدري به لكنه لا يحتاط ؟ ! كلاهما ينتثران اشلاء في الهواء ، لان العلم بلا اقدام يساوي الجهل ، قال تعالى : " و لئن سألتهم من خلق السماوات و الارض ليقولن الله قل الحمد لله بل اكثرهم لا يعلمون " (١) فلا شك اذن ان المؤمن الذي يلعب و يلهو في الدنيا ، و يتخذها زينة و تفاخرا و تكاثرا في المال و الاولاد ، و يبخل بالانفاق في سبيل الله حرصا و تشبثا بها ، كمثل الذي يكفر بالآخرة و ما فيها من الثواب و العقـاب ، و الا لجعل الاخرة هدفه ، و بذل ما يستطيع من اجلها رغبة في رضوان ربه و ثوابه ، و خوفا من غضبه و عقابه ، بل اصبح يتسابق - اذا - نحو الخيرات ، لانها الـزاد و الثمن فيها ، و ربما لذلك امرنا القرآن بالعلم قائلا:

]اعلموا انما الحياة الدنيا[

هنا ثلاثة تأكيدات : احدها الدعوة المؤكدة الى العلم ، و الثاني اداة التوكيد ان ، و الثالث الحصر (انما) ، و حيث تتوالى هذه التأكيدات على حقيقة ما فهي مهمة و مهم ان يعلمها الانسان ، فما هي تلك الحقيقة ؟ ؟

ان الحياة الدنيا لمن ارادها ؛

]لعب و لهو و زينة[

و اللعب هو العمل الباطل و بلا هدف معقول ، قال تعالى يحدث عن(١) لقمان / ٢٥.

ابراهيم)ع) : " قال لقد كنتم انتم و آباؤكم في ضلا مبين * قالوا أجئتنا بالحق ام انت من اللاعبين " (١) ، و قال : " و ما خلقنا السماء و الارض و ما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما الا بالحق و لكن اكثرهم لا يعلمون " (٢) ، اي لا يعلمون الهدف الذي تنطوي عليه الحياة الدنيا ، فتصبح بمجملها باطلا و لعبا و لهوا ، كما ان تفريغ الدين من مضمونه و من قيمه و اهدافه عند البعض يجعلهم يتخذونه لهوا ولعبا ، كما قال ربنا سبحانه عنهم : " و ذر الذين اتخذوا دينهم لعبا و لهوا ، و غرتهم الحياة الدنيا" (٣. (

و انما نسمي مجموعة ممارسات لعبا لانها غير هادفة (حتى بمقاييس أهل الدنيا (كذلك الدنـيا لمن يمارسها لا لهدف ابعد منها تصبح لعبا ، فاذا سألته لماذا تعمل ؟ قال : لاكل ، و اذا اعدت عليه ذات السؤال و قلت : لماذا تأكل ؟ قال : لكي اتقوى على العمل ، و اذا سألته ثالثا : لماذا اساسا تعيش ؟ قال هكذا جئت لاعيش و لا اعرف لماذا ؟

او لم تسمع شاعرهم قال:

جئت لا اعلم من اين و لكني أتيتو لقد ابصرت قدامي طريقا فمشيتو سأبقى ماشيا ان شئت هذا او ابيتكيف جئت كيف ابصرت طريقي ؟ لست ادريو حينما يغرق في ممارسته اللعب يتحول الى اللهو ، حيث النسيان التام و الغفلة عن الهدف . بلى . جاء الانسان من عالم الذر الى الدنيا كمحطة يتزود منها ، ثم(١ (الانبياء / ٥٥.

(2)الدخان / ٣٩.

(3)الانعام / ٧٠.

يواصل سفرة الى الآخرة ، و لكنه حيث جاءها رأى الناس يلعبون ، و رأى ادوات اللعب فشاركهم ، فبالغ في لعبه ، فنسي انه على سفر و غفل عن مهمته.

و كل شـيء يدعـونا الى الغفلـة ، و ينسينا اهدافنا فهو لهو ، قال الامام علي)ع) : " فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات ، كالبهيمة المربوطة همها علفها ، او المرسلة شغلها تقممها ، تكترش من اعلافها ، و تلهو عما يراد بها " (١ . (و استخدام القـرآن لكلمة اللهو يأتي بهذا المعنى ، قال تعالى " : الهاكم التكاثر * حتى زرتم المقابر " (٢) . و قال : " لا تلهكم اموالكم و لا اولادكم عن ذكر الله و من يفعل ذلك فاولئك هم الخاسرون " (٣) ، و قال " : رجال لا تلهيهم تجارة و لا بيع عنذكر الله و اقام الصلاة و ايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب و الابصار " (٤) ، و قال : " و من الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم و يتخذها هزوا اولئك لهم عـذاب مهيـن " (٥) ، و اكثر ما يتورط احد في اللهو بسبب نسيان الموت و الاخرة ، و لذلك يأتي في نهاية الآية تذكير بها عند قوله : " و في الآخرة عذاب شديد و مغفرة " ، و انطلاقا من هذا التعريف فان الغناء ، و الرقص ، و مجالس البطالين و جمع المال ، و ما اشبه مصاديق للهو.

و اذا لهى الانسان نسي السفر ، و نسي الاستعداد اليه ، فاذا بك تراه يغرق في حب الدنيا ، و ينصرف الى أهداف جانبية فيها (تسمى بالزينة) ، طبيعتها الفساد و الزوال حتى بمقاييس الدنيا الزائلة . أرأيت الذين يصرفون الالوف من اموالهم على امور كمالية او ديكورية ؟

(1)نهج كتاب / ٤٥ / ص ٤١٨.

(2)التكاثر . 2 - 1

(3)المنافقون / ٩.

(4)النور / ٣٧.

(5)لقمان / ٦.

و الزينة هي الامور الثانوية التي يكمل بها الشيء ، و منها الحلي و العطر و الورد لانها تكمل جمال المرأة ، قال تعالى : " ولقد جعلنا في السماء بروجا و زيناها للناظرين " (١) و قال : " المال و البنون زينة الحياة الدنيا. (2) "

و الاسلام لا يعارض الزينة ، بل و يستنكر تحريمها ، قال تعالى : " قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده و الطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة " (٣) ، كما انه دعى اليها ، قال تعالى : " يا بني آدم خذوا زينتكم عن كل مسجد و كلوا و اشربوا "بلى . حرم الاسلام الاسراف فيها ، فقال في خاتمة الآية : " و لا تسرفوا ان الله لا يحب المسرفين " (٤) ، كما حرم الباطل : " قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها و ما بطن و الاثم و البغي بغير الحق و انتشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا و ان تقولوا على الله ما لا تعلمون " (٥. (

ان المطلـوب هو حفـظ التوازن المعقول بين الامور الكمالية و الاخرى الاساسية ، و ان يجعل الانسان الامور الثانوية تكمل بالفعل الجانب الضروري من حياته ، لا ان تكون بديلا عنه ، او على حسابه ، و مشكلة البشرية اليوم انها توجهت الى الكماليات على حساب اهدافها الاساسية ، ليس في مجال الالتزام بالدين و حسب ، بل في مجال الحضارة ، و هذا جزء من الموقف الخاطىء من الحياة الدنيا ، و لا ريب ان سببه نسيان الآخرة او الكفر بها ، لان مثل هذا الانسان يجري وراء اهوائه و ناسيا ليس فقط اهدافه السامية) في الآخرة) بل ومصالحه الحقيقية (في الدنيا) ، كما قال ربنا سبحانه عن مثله : " و لا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا و اتبع هواه(١) الحجر / ١٦.

(2)الكهف / ٤٦.

(3)الاعراف / ٣٢.

(4)المصدر / ٣١.

(5)المصدر / ٣٣.

و كان امره فرطا . (1) "

اما الذي يعتقد بالدنيا وحدها فسعيه سوف يكون من أجل اشباع الشهوات ، و جمع الزينة ، و ستزيده زينتها انغماسا فيها و بعدا عن الحق . و من مظاهر الاهتمام الزائد بالزينة التوجه الى القشور ، على حساب اللباب . بينما المؤمن بالآخرة يحس بالمسؤولية فلا يسترسلفي اتباع شهواته ، و لا يندفع في

الزينة التي تخالف بمصالحه الحقيقية.

]و تفاخر بينكم[

و التفاخر هو الآخر مما يتلهى به الانسان و يستعيض به عن اهدافه الحقيقية ، و اذا كان اللعب و اللهو و الزينة تحكي الجانب الفردي من الاغترار بالدنيا ، فان التفاخر هو الجانب الاجتماعي لذات الحالة ، و يأتي التفاخر نتيجة مباشرة للافتتان بالزينة اذ يرى الشخص نفسه كاملا و أفضل من غيره من خلالها ، فيركبه الخيلاء و الفخر.

ثم تتحول هذه الحالة النفسية الاجتماعية الى فعل خارجي يمارسه المختال الفخور ليثبت عظمته على غيره من خلال التكاثر و التسابق المادي ، قال تعالى : " و اضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لاحدهما جنتين من اعناب و حففناهما بنخل و جعلنا بينهما زرعا ... و كانله ثمر فقال لصاحبه و هو يحاوره (انا اكثر منك مالا و اعز نفرا) * و دخل جنته (و هو ظالم لنفسه) قال ما اظن ان تبيد هذه أبدا * و ما أظن الساعة قائمة " (٢) . انظر هكذا يتحول حب الدنيا و زينتها الى حالة نفسيه داخلية (الغرور و الظلم) فاجتماعية (التباهي و التفاخر. (

(1)الكهف / ٢٨.

(2)الكهف / ٣٢ - ٣٥.

]و تكاثر في الاموال[

الممتلكات من العملات و العقارات ، و المشاريع و ما اشبه.

]و الاولاد[

الابناء و الانصار ، و قد يتحول هذا التسابق صراعا بين الناس في أغلب الاحيان ، و يركز فيهم حب الدنيا ضمن أطر سياسية و اجتماعية و اقتصادية ، و اظهر صورة صراع القوى الاستكبارية و تسابقها في نهب ثروات العالم ، و استغلالهم في صالحها ، و السيطرة عليهم بضمهم الى نفوذها.

تعالوا نمعن النظر في هذه الحياة الدنيا التي استحوذت على افئدتنا (هذا اللعب و اللهو ، هذه الزينة ، و هذا التفاخر و التكاثر) ما هي عاقبتها ؟ بل ما هي حقيقتها بل هل لها - اساسا - حقيقة ام انها اضغاث احلام تراود النائمين فاذا ماتوا انتبهوا ، و عرفواانها لم تكن سوى سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، او حفنة رماد في كف الاعصار.

و لكن انى لنا ان نفكر في الدنيا و لا زلنا في اسر سحرها الجذاب ؟ ! لا تكاد لحظة تمر علينا الا و نحن في دوامة امنية نسعى اليها ، او فتنة نعيش في لهبها ، او صراع نحترق في اتونه ، و حتى في النوم تلاحقنا كوابيس النهار في صورة احلام مزعجة ! اذا كيف الخلاص من اغلال هذه الشهوات لنفكر بحرية و موضوعية في واقعنا ؟

ان للقرآن الحكيم مناهج شتى تساعد على التفكر السليم ، و ما يشير اليه السياق هنا من ابرزها : ان ننظر الى الطبيعة و دوراتها السريعة ، و نتساءل : اليست هذهي الدنيا ؟ ! او ليست حياة النبات في دورتها السريعة شبيهة بحياة الانسان في دورة ابطأ قليلا و لكن بذات النسق ، يقول عنها ربنا في آية كريمة : " و اضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح و كانالله على كل شيء مقتدرا * المال و البنون زينة الحياة الدنيا و الباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا و خير املا (1) " ؟ ! و يقول ربنا في هذه الآية:

]كمثل غيث[

مطر نزل على الارض ، فسقاها ، و اختلط بما فيها من بذور فصارت نباتا.

]اعجب الكفار نباته[

اي ادخل الى نفس الفلاح العجب و الاغترار به ، كما تدخل زينة الدنيا في نفوس الكافرين بالآخرة ، و لا شك ان هذه الحالة سوف تجعله يعتقد ببقائه ، و يلهو عن نهايته حيث يصير حطاما ، و النبات هو المزروعات الصغيرة التي لا تبقى كالقمح و الذرة ، و يقال لها نباتا في اطوارها الاولى حيث تشق التربة .

]ثم يهيج[

و يترعرع ، و يثمر حينما يبلغ اقصى القوة ، و لكنه لا يبقى طويلا حتى تبدا مسيرته الى النهاية.

]فتراه مصفرا[

اول الامر . و الملاحظ ان العطف جاء بالفاء و هي اقرب الحروف عطفا.

(1)الكهف / ٤٥ - ٤٦.

]ثم يكون حطاما[

اذا أكل دورته الحياتية ، اذ تيبس و تتكسر اوراقه و اعواده ، و هذه بالضبط مسيرة الحياة عند الانسان في الدنيا ، يبدا طفلا كالنبات ، ثم ينشط و يهيج عند المراهقة و الشباب ، و لكنك تراه يتنكس في الخلق شيئا فشيئا ، و يفقد قوته و زينته ليصير كهلا فشيخا عجوزا قد وهن وخارت قواه ، و لا يطول به الامد حتى تراه جثة هامدة محمولة على الاكتاف الى قبر ضيق يستحيل فيه هيكلا ، فأوصالا ، فحطاما ، فترابا تذوره الرياح ، فلماذا يتشبث الانسان بالحطام و المتاع الزائل اذن وهو مقبل على الآخرة ؟

ثانيا : ما هي اهدافه في الدنيا و كيف يصل بها ؟

و حينما يطمئن الانسان الى حقيقة الدنيا فسيعلم ان حطامها ليس بالذي يشبع طموحاته و يحقق تطلعاته ، انه يريد السعادة و لا تتم له فيها ، و يريد الخلود و هيهات ذلك ؟ ، فلا بد ان يبحث له عن هدف سام يجده اهل للسعي له ، و هذا لا يمكن حتى يضيف الى علمه بحقيقة الدنيا علما بحقيقة الآخرة ، و من هذا المنطلق يعطف الله على قوله " اعلموا انما الحياة الدنيا " قوله تعالى :

]و في الآخرة عذاب شديد[

فكل انسان يحس بفطرته ، ان طموحاته اكبر من الدنيا و ما فيها ، و لكنه اذا غفل عن الاخرة فسيبقى مصرا على التشبث بالدنيا ، طمعا في تحقيق ما يقدر عليه منها مما كان متواضعا ، و لذلك نجد القرآن يرسي قاعدة الايمان بالآخرة في النفس ليحقق التوازن المطلوب في نفس البشر لكي لا ينساق وراء التكاثر في جمع حطامها ، ظنا منه انه يحقق تطلعاته بذلك . كلا .. انت مخلوق لما هو اكبر منه و أبقى ، فماالذي يعطيك هذا التفاخر و التكاثر ؟ هب انك بلغت ما بلغ سليمان ذلك النبي الكريم الذي سخرت له الريح ، و استخدم الجن و علم منطق الطير ، و لكن أتعلم اين سليمان اليوم ؟ و اين ملكه الكبير ؟ و اين عزته الشامخة ؟ افلا نعتبر بمصير الملوك الذين حققوا عند الناسطموحاتهم فاذا بهم ينقلون من قصورهم الى قبورهم تأكل ابدانهم الديدان قبل ان تصبح رميما ثم ترابا تذروه الرياح ؟

اما المؤمن بالآخرة فان نفسه قانعة بما لديها ، راضية بما آتاها الله ، و تائقة الى ما عنده . هل سمعت نبأ الامام الحسن المجتبى (عليه السلام) كيف خرج عن امواله جميعا لله مرة و قاسم الله امواله مرات ؟ ام هل عرفت زهد الامام علي عليه السلام ؟ و هكذاالمؤمن يستبدل الدنيا بالاخرة ، و لن يمتنع

عن الانفاق في سبيل الله.

و على أساس الايمان بأن الآخرة هي دار الجزاء و الخلود - فاما عذاب شديد ، او مغفرة و رضوان من الله حسب ما يقدم الانسان في الدنيا ليوم الحساب - فانه لا ريب سيعرف أهمية الحياة الدنيا ، و دورها الحاسم في مستقبله الابدي ، و حينها لن يدع الهزال و المزاح واللعب يأخذ من وقته شيئا ، لان الغاية عظيمة ، و الخطر كبير ، و الفرصة قصيرة ، بل سوف يخشع قلبه لذكر الله خوفا من عذابه ، و طمعا في مغفرته و رضوانه.

و اعظم هدف يسعى اليه هو الخلاص من النار ، لان صراط الجنة يمر من فوقها . اوليس طريق الجنة محفوفا بالمكاره التي ينبغي للانسان تحملها و الصبر عليها ، و بالشهوات التي ينبغي ان يتحداها و يجتنبها ، فان لم يتحمل و لم يصبر ، او لم يتحد و يتجنب فسوف يقع فيالجحيم و قودا لنيرانها و يعذب فيها بقدر فشله ؟ و هذه الغاية من اعظم طموحات المتقين " الذين يذكرون الله قياما و قعودا و على جنوبهم و يتفكرون في خلق السماوات و الارض ربنا ما خلقت هذا باطلاسبحانك فقنا عذاب النار " (١) . و اعظم بها من غاية فاز و الله من اصابها " فمن زحزح عن النار و ادخل الجنة فقد فاز " (٢. (

و الهدف الاخر هو الدخول الى الجنة ، و ذلك لا يمكن من دون مغفرة الله و رضوانه ، اذ لا يدخل احد الجنة بعمله - بل بفضل الله - حتى الانبياء ، و ذلك لا يتحقق الا بالانابة الى الله و الاعتراف له بالخطأ ، و السعي الدائب للاصلاح.

]و مغفرة من الله و رضوان[

هذه هي الاهداف الحقيقية التي يجب على كل انسان السعي من اجلها ، و بها تصبح الدنيا اخرة ، و الحياة فيها ذات معنى ، و كل ساعة فيها اعظم من ساعات الآخرة . اما بدونها فتصبح لعبا و لهوا ، و تتحول الى اداة للغرور.

]و ما الحياة الدنيا الا متاع الغرور[

المتاع هو الزاد ، و الغرور الانخداع ، قال تعالى : " فلا تغرنكم الحياة الدنيا و لا يغرنكم بالله الغرور " (٣) ، و شبه الدنيا بزاد الغرور ، لانها لا تشبع عند المنخدع بها حاجة حقيقية ، الا غروره الكاذب الباطل ، الذي ينتهي عند الموت ، فلا تبقىعنده ذرة من غرور.

و اذا نظرنا الى حديث القران عن الدنيا ، و الى السياق الذي تقع ضمنه في كل مرة ، فاننا سوف نلاحظ ورود ذكرها في مواضع كثيرة و علاجا لمشاكل مختلفة مما يثير فينا التساؤل : لماذا ؟ و قد يتكرر النصف الواحد في موارد متعددة ، و سياقات مختلفة ، و يجيب عنذلك الحديث المروي عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم: (

(1)ال عمران / ١٩١.

(2)ال عمران / ١٨٥.

(3)لقمان / ٣٣.

"حب الدنيا رأس كل خطيئة " فمهما وجدت انحرافا او خطأ في حياة الانسان) فردا و جماعة) فانك تجده متصلا بحب الدنيا ، و الاغترار بها.

[21]و اذا تحول نظر الانسان و قلبه الى تلك الاهداف السامية ، فهو لا ريب سيتحول موقفه من الدنيا و سلوكه فيها ، فالاهداف عظيمة و الفرصة قصيرة ، اذا لابد من ترك اللعب و اللهو الى الجد و الاجتهاد ، و ترك الزينة الى ما ينفع ، و التفاخر و التكاثر في الاموال و الاولاد الى التسابق في الخير و الصالحات

الباقيات.

ان تلك الاهداف كفيلة بان تجعله في ذروة الفاعلية ، و تحيل المجتمع الى بركان متفجر من الحيوية و الاجتهاد و روادا في فضيلة التسليم للقيادة الرسالية ، و الاستجابة لدعوتها.

]سابقوا الى مغفرة من ربكم[

و انبعثوا انبعاثة نحو الجنة العريضة ، بدل الدنيا ، و قاوموا جاذبية المادة طلبا لرضوان الله.

]و جنة عرضها كعرض السماء و الارض اعدت للذين آمنوا بالله و رسله]و هذا هو الاجر و هو - في ذات الوقت - النور الذي وعد به الله تعالى الصديقين و الشهداء في الاية (١٩. (

]ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء[

فلا يظنن احد انه يمن على ربه بالايمان ، او انه يحصل عليه بجهده ، او يدخل الجنة بسعيه ، انما بفضل الله و منه يحظى الانسان بالايمان ، و يدخل الجنة ، بلى . انارادة الانسان و سعيه ضروري ، كما قال ربنا : " و من اراد الاخرة و سعى لها سعيها و هو مؤمن فاولئك كان سعيهم مشكورا " (١) ، و لكن التوفيق الى ذلك جزء من فضله تعالى.

]و الله ذو الفضل العظيم[

و ما دمنا في مقام رب عظيم ، ذي فضل عظيم ، و مغفرة عظيمة و رضوان ، فمن السفه ان نرضى لانفسنا بالادنى ، و نشتغل بالتوافه تاركين وراءنا ذلك الفضل العظيم.

و يأتي الامر الالهي بالتسابق الذي يستهدف) المغفرة و الرضوان) ، و هو اعلى مراحل السعي الايجابي و حالاته ، في مقابل التكاثر في الاموال و الاولاد ، الذي يستهدف جمع اكبر قدر من حطام الدنيا ، و يمثل اسفل دركات العلاقة و الانشداد بها ، بالرغم من اعتقادالانسان بانه يبلغ الكمال عندها . و يصل التسابق الى اقصاه حينما ينبذ المؤمنون الغرور بالعمل و الاماني ، و ينطلقون من الاحساس بالتقصير ، لان الاحساس بالكمال يوقفهم عن السعي و الاستزادة ، و لذلك قال تعالى " الى مغفرة " ، و هذه من صفات المتقين" لا يرضون من اعمالهم القليل ، و لا يستكثرون الكثير ، فهم لأنفسهم متهمون ، و من اعمالهم مشفقون ، اذا زكي احد منهم خاف مما يقال له ، فيقول : انا اعلم بنفسي من غيري ، و ربي اعلم بي من نفسي ! اللهم لا تؤاخذني بما يقولون ، و اجعلني افضل مما يظنون ،و اغفر لي ما لا يعلمون " (٢) و هذه الصفة هي التي تصنع الابداع و الفاعلية في الفرد و المجتمع ، و تجعله يتقدم الى الامام ابدا.

(1)الاسراء / ١٩.

(2)نهج / خ ١٩٣ / ص ٣٠٤.

ثالثا : ما هو الموقف السليم من متغيرات الدنيا ؟

[23 - 22]و حيث يعيش المؤمنون في الدنيا ، و يسابقون الى فضل الله ، فلا بد ان يستوعبوا طبيعتها المتغيرة لكي لا تترك آثارها السلبية عليهم ، ففيها الغنى و الفقر ، و الشفاء و المرض ، و القوة و الضعف ، و النصر و الهزيمة ، و الزيادة و النقص ، و لابد انيستقيموا على كل حال ، فالذي يتغير مع الظروف و المتغيرات لا يصل الى اهدافه و طموحاته ، لانه تضله النعمة بطرا ، و المصيبة يأسا ، او يعطي و يسابق حيث تسود هذه الحالة المجتمع و يلقى التشجيع اليها ، و لكنه يتوقف حيث توقف الآخرون ، او ثبطوه ، فكيف يحصل الانسان على الثبات ؟

اولا : بالمعرفة العميقة بطبيعة الدنيا على ضوء الاية الكريمة " اعلموا انما الحياة الدنيا لعب و لهو و زينة و تفاخر بينكم و تكاثر في الاموال و الاولاد .. و ما الحياة الدنيا الا متاع الغرور " و الرغبة في فضل الله ،

مما يزهد الانسان فيها ، فلايفرح حين تقبل عليه ، و لا يحزن حين تدبر عنه ، لانها ليست بذات شأن عظيم عنده.

قال الامام علي (ع) : " الناس ثلاثة : زاهد و صابر و راغب ، فاما الزاهد فقد خرجت الاحزان و الافراح من قلبه ، فلا يفرح بشيء من الدنيا ، و لا يأسى على شيء منها فاته فهو مستريح " (١) ، و قال (ع) : (الزهد كله بين كلمتين في القرآن ،قال الله تعالى : " لكيلا تأسوا على مافاتكم و لا تفرحوا بما آتاكم " و من لم يأس على الماضي ، و لم يفرح بالاتي فقد اخذ الزهد بطرفيه " (٢. (

و نقل عن الامام الباقر (ع (انه رأى جابر بن عبد الله (رضي) و قد تنفس الصعداء (التنفس الطويل من هم او تعب) فقال (ع) : " يا جابر على م تنفسك(١) نور الثقليم / ج ٥ / ص . 248

(2)المصدر / ص ٢٤٩.

اعلى الدنيا " ؟ ! فقال جابر : نعم ، فقال له : " يا جابر ملاذ الدنيا سبعة : المأكول ، و المشروب ، و الملبوس ، و المنكوح ، و المركوب ، و المشموم ، و المسموع ، فألذ الماكولات العسل و هو بصق من ذبابه ، و أحلى المشروبات الماء ، و كفى بإباحته و سباحته على وجه الارض ، و اعلى الملبوسات الديباج و هو من لعاب دودة ، و اعلى المنكوحات النساء وهو مبال في مبال ، و مثال لمثال و انما يراد احسن ما في المرأة لاقبح ما فيها ، و اعلى المركوبات الخيل و هو قواتل ، و اجل المشمومات المسك و هو دم من سرة دابة ، واجل المسموعات الغناء و الترنم و هو اثم ، فما هذه صفته لم يتنفس عليه عاقل . "

قال جابر : فو الله ما خطرت الدنيا بعدها على قلبي . (١. (

ثانيا :الرضى و التسليم بالقضاء الذي ياذن به الله فيقع ، و هو أرفع درجة من الزهد ، بل ارفع درجات الايمان لقول الامام علي بن الحسين (ع) و قد سئل عن الزهد : " الزهد عشرة اجزاء ، فأعلى درجات الزهد ادنى درجات الورع ، و اعلى درجات الورع ادنى درجات اليقين ، و اعلى درجات اليقين ادنى درجات الرضى " (٢) . و لا يسمو الانسان اليه الا اذا آمن بان كل ما يحدث في الوجود بتقدير مسبق من الله (القدر) ، فذلك بدل ان يؤثر فيه سلبا باتجاه الانحراف يؤكد فيه الانتماء الى مسيرة الحق ، و التوحيد المخلص للهبدل الشرك ، " و لنبلونكم بشيء من الخوف و الجوع و نقص من الاموال و الانفس و الثمرات و بشر الصابرين * الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله و انا اليه راجعون " (٣) ، لانهم يعتقدون بهذه الحقيقة:

(1)بح / ج ٧٨ / ص ١١.

(2)بحار الانوار / ج / 78ص ١٣٦.

(3)البقرة / ١٥٥. 156 -

]ما اصاب من مصيبة في الارض[

خارجية من حولكم ، قال صاحب المجمع :مقل قحط المطر : و قلة النبات ، و نقص الثمرات.

]و لا في انفسكم[

مباشرة " من الامراض و الثكل بالاولاد " (١) او ما اشبه.

]الا في كتاب من قبل ان نبرأها[

فهي مكتوبة على الانسان في قدر الله قبل الخلق الاول لنفسه ، و تحولها الى الواقع انما هو تصويب للقدر بانفاذ القضاء ، و من الصعب على الانسان ان يستوعب هذه الحقيقة انطلاقا من النظر الى نفسه و قدراته المحدودة ، و لكنه اذا فكر فيها من خلال ارادة الله و علمه فالأمر هين عنده تعالى.

]ان ذلك على الله يسير[

و كيف لا يكون كذلك " و هو على كل شيء قدير " " و بكل شيء عليم " ؟ ؟

و لهذه الآية الكريمة علاقة وثيقة بالدعوة الى التسابق ، و هي ان المتغيرات السلبية في حياة الانسان (المصيبة) قد تصيبه بالاحباط النفسي الذي يفقده الفاعلية اللازمة للتسابق ، و لا شك ان الايمان بالقضاء و القدر مانع عن الاحباط في الضراء كما هو حاجز عنالاغترار في السراء.

]لكيلا تأسوا على ما فاتكم[

(1)المجمع عند الآية.

لان اليأس (التثبط و الهزيمة الداخلية) بسبب التغير السلبي يسلبنا الفاعلية و التحرك . و لماذا نسعى و نسابق الى هدف لا نصل اليه ؟ هذا هو الاحساس و التساؤل الذي يرتسم عند المصيبة ، و لكن لماذا اليأس ، فالمصيبة اما بارادة الهية لا سبيل فيها الا الاعتراف بها و التسليم لارادة ربنا و حكمته ، و اما تكون بسببنا فنحن اذا قادرون على مقاومتها و تغييرها بتغيير ما في انفسنا . و لا داعي لليأس ، فقد نجاهد العدو فنفشل و ننهزم لاننا متفرقون ، منهزمون نفسيا ، و لكننا نستطيع الانتصار عليه اذا اعترفنا بعوامل الهزيمة عندنا فتجنبناها ، و اسباب الانتصار عند العدو فأخذنا بها.

و كذلك النعمة يجب ان لا تدفعنا الى الغرور و الفخر ، فنعتمد عليها بدل الاعتماد على الله ، و هي لا تبقى ، او ننسى العوامل التي تسببت فيها فتزول.

]و لا تفرحوا بما ءاتاكم[

لان الفرح (الغرور و الاحساس بالكمال) يدعونا الى التوقف ، كاليأس و لكن بصورة اخرى ، حيث لا نجد دافعا الى السعي و الاستزادة ، و قد بلغنا القمة عند انفسنا ، بل قد يدعونا الى الشرك و ذلك للشعور بالاستغناء عن الله تعالى.

]و الله لا يحب كل مختال فخور[

كائنا من كان ، لانهما صفتان سلبيتان منبوذتان عنده تعالى ، لا يبررهما حسب و لا نسب و لا منصب و لا فضل مادي او معنوي . و نستلهم من الآية:

اولا : ان الفرح (و الاعجاب بما نملك) يسبب التكبر على الناس و الفخر.

ثانيا :ان علاجه يتم بالايمان بالقضاء و القدر ، و ان ما نملك لم نحصل عليه منعند انفسنا بل بفضل الله سبحانه ، فلا داعي للتعالي على الناس به او الفخر و الغرور.

ثالثا : ان من يعيش التكبر و الفخر يخسر ما آتاه الله ، لان الله لا يحب كل مختال فخور ، و اذا كانت النعمة من الله فان زوالها سيكون بيده.

[24]و يضرب الله مثلا على المختالين الذين يفخرون ، و يبين لنا انعكاس فرحهم بالنعم على نفوسهم و سلوكهم بالنسبة للانفاق ، بعد بيان انعكاسه في النفس و المجتمع.

]الذين يبخلون و يأمرون الناس بالبخل[

و انما يبخلون لاسباب اهمها امران ؛ الاول : لانهم يريدون التفاخر و التكاثر ، فهم يزعمون ان الانفاق يقلل ما يملكون ، و جاء في الحديث " ما فتح على عبد بابا من امر الدنيا الا وفتح عليه من الحرص مثليه " (١) و الثاني : لانهم يحسون بالاستغناء عنكل احد ، و هذا يتضخم في نفوسهم حتى يشعرون بعدم الحاجة الى ثواب الله ، فاذا بهم لا يستجيبون لدعوته بالانفاق ، و لا يدعمون مسيرة الحق.

]و من يتول فان الله هو الغني[

الذي لا يحتاج الى أحد ، و انما امر بالانفاق لصالح الناس و لابتلائهم.

]الحميد[

فهو يواصل فضله على عباده ، و لكن لماذا يأمرون الناس بالبخل ؟

(1)بح / ج ٧٣ / ص ١٦٠.

- 1لكي يبرروا بخلهم بخلق تيار من البخلاء في المجتمع حتى لا يرى بخلهم شذوذا.

- 2حفاظا على الحالة الطبقية التي تمهد لهم الاستبداد و الاستغلال و الفخر و الخيلاء ، اما اذا ردمت الهوة بين الطبقتين الاغنيا و الفقراء فعلى من يختالون و يفتخرون ، و من يستغلون و يستبدون ؟ ! و الرأسمالية الموجودة الآن هي احد افرازات الفلسفات و الافكار الاغريقية القديمة العفنة ، و التي تقسم الناس الى طبقات حتمية ، و ذاتها موجودة الان في الفلسفات البرهماتية في الهند.

- 3كما ان المنافقين يتخذون تثبيط الناس عن الانفاق ، و دعوتهم الى البخل سبيلا للصد عن سبيل الله ، و محاربة الرسول و رسالته الداعيان الى العدالة و الوقوف ضد الطبقية المقيتة ، و استغلال الناس و . و . مما يتعارض مع مصالحهم . قال تعالى : " هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا و لله خزائن السماوات و الارض و لكن المنافقين لا يفقهون " (١) و هذه الاية تشير الى الهدف الاخير للامر بالبخل ، و لعل الاية من سورة الحديد اشارة الى دور المنافقين في محاربة الرسالة ، و الدعوة الى التولي عن الرسول و الحق.

و في الاخبار روايات كثيرة في ذم البخل و البخلاء اليك بعضها:

قال الرسول (صلى الله عليه وآله) : " البخيل بعيد من الله ، بعيد من الناس ، قريب من النار " (٢) و قال الامام علي (عليه السلام) : " البخل جامع لمساوىء العيوب ، و هو زمام يقاد به الى كل سوء " (٣) و قال " : النظر الى البخيل يقسي

(1)المنافقون / ٧ - ٨.

(2)بح / ج ٧٣ / ص ٣٠٨ .

(3)المصدر / ص ٣٠٧.

القلب (1) "و قال الامام الصادق (عليه السلام) : " حسب البخيل من بخله سوء الظن بربه ، من ايقن بالخلف جاد بالعطية " (٢) و عن الامام الرضا عليه السلام : " اياكم و البخل فانها عاهة لا تكون في حر و

لا مؤمن . انها خلاف الايمان) "
. (3

(1)بح / ج ٧٨ / ص ٥٣.

(2)بح / ج ٧ / 7ص ١٤٧.

(3)بح / ج ٧٨ / ص ٣٤٦.

ليقوم الناس بالقسط

هدى من الآيات

اقامة العدالة وفق القيم الالهية احد اهم و ابرز الاهداف التي تنزلت من اجلها رسالات الله ، و سعى اليها الانبياء و الرسل ، كما ينبغي ان يسعى اليها كل مؤمن بل كل انسان ، و لا يجوز ان ينتظر رسولا يبعثه الله ليتحملها ، فاذا لم يحدث ذلك اعتزل الواقع ، و بالغ في الترهب انتظارا للمنقذ ، كما فعل الكثير من اهل الكتاب ، فان ذلك يصير بهم الى الظلم و التخلف في الدنيا ، و العذاب و الغضب الالهيين في الاخرة .. و اذا رفع راية العدالة شخص او تجمع فان على سائر الناس ان ينصروه ان وثقوا منه و من اهدافه ، و لا يدعوهوحده في مواجهة الظالمين ، فذلك هو المحك الذي يثبت شخصية الامة الحقيقية ، كما انه الطريق الى كفلين من رحمة الله : هدى و رحمة في الدنيا ، و جنة و مغفرة في الاخرة.

بينات من الآيات

[25]ما هي السمات الاساسية للحركة الصادقة ؟ و ما هو هدفها و المنهج الالهي الكفيل بالوصول اليه ؟ و من هو المسؤول عن تطبيقه ؟ عن هذه الاسئلة الحساسة تتحدث اية الحديد التي تنتهي اليها بصائر هذه السورة التي سميت باسمها.

ان اهــم الســمات في الحركة الصادقة و التي تعد بينات على سلامتها هي التالية:

الاولى :الانبعاث باسم الله رب العالمين ، اما الانطلاقة الضالة التي تبدا من ثقافة الشرك و الجحود فانها اية واضحة على خطا الحركات التي ترتكز عليها ، و الرسل وحدهم انطلقوا باسم الله و بأمره الذي تلقوه عبر الوحي بعد اختيارهم من قبله تعالى ، و حيث ختم الله عهد هذا النوع من الحركات بنبيه محمد (ص) فان الحركة الصادقة هي التي تكون امتدادا لهم و بزعامة الاوصياء و الربانيين و العلماء بالله الامناء على حلاله و حرامه و الاولياء و القادة الرساليين.

الثانية : المنهج الرباني الاصيل ، و المتمثل في الرسالات التي اكملها و ختمها ربنا بالقرآن الذي حفظه من التحريف ، و جعله مهيمنا على الكتب ، فانه المنهج الاصيل و الوحيد الذي يجب اتباعه ، و اتباع هداه و بصائره ، اما المناهج القائمة على الجهالة و الافراط و اتباع الاهواء فهي لا تصلح وسيلة مناسبة للنجاح ، لانها اذا اخرجت الناس من ظلمات فلكي تدخلهم في مثلها ، او انقذتهم من عبودية فالى عبودية مثلها او أسوء منها.

الثالثة : الاهداف السامية ، و التي يلخصها القرآن في العدل (قيام الناسبالقسط) ، و لكن ليس بالمفهوم الضيق له المتمثل في ردم الهوة بين الطبقات الاجتماعيــة ، بل الــتزام الحق و الانصاف من قبل الانسان في كل ابعاد حياته و علاقاته ، في علاقته بربه و قيادته ، و في علاقته بنفسه و مجتمعه ، و في علاقته بالخليقة من حوله ، و انمايعرف مدى قيامه بالقسط من خلال الميزان (الفطرة ، و العقل ، و الكتاب ، و القيادة ، . (...

و الحركــة الصادقة هي التي تسعى الى ذلك بالكلمة الصادقة او بالقوة و السلاح ، و هي التي يجب على الناس تبنيها ، و مساعدتها ، و الانتماء الى صفوفها ، لانها تجاهد للحق و من اجل سعادتهم ، و لانها المحك في نصرتهم لله و لمسيرة الانبياء و المرسلين.

و الآية تشير الى هذه السمات اذ تقول:

]لقد ارسلنا رسلنا[

دليلا الى الله ، و تعريفا للناس به تعالى ، فهم يتحملون مسؤولية محددة هي تبليغ رسالة الخالق الى المخلوقين ، و هدايتهم الى معرفته ، و الايمان به ، و العمل برسالته ، قال النبي (ص) : " بعث اليهم الرسل لتكون له الحجة البالغة على خلقه ، و يكون رسله اليهم شهداء عليهم ، و ابتعث فيهم النبيين مبشرين و منذرين ليهلك من هلك عن بينة ، و يحيى من حي عن بينة ، و ليعقل العباد عن ربهم ما جهلوه ، فيعرفوه بربوبيته بعدما انكروا ، و يوحدوه بالالهية بعد ما عضدوا (اشركوا) " (١) ، و قال الامام علي (ع) : " بعث رسله بما خصهم به من وحيه ، و جعلهم حجة له على خلقه ، لئلا تجب الحجة لهم بترك الاعذار اليهم " (٢) ، فهم(١) توحيد المفضل / ص ٤٥.

(2)نهج / خ ١٤٤.

الواسطة بين الخالق و المخلوق ، و حبل الله الممدود من السماء الى الارض ، و لكن كيف نعرف صدقهم و صدق دعوتهم من بين القادة المنحرفين و الدعوات الضالة ؟

القران يجيب على هذا السؤال اذ يقول:

]بالبينات[

لهذه الكلمة معنيان يبدو ان كليهما تشملهما الكلمة:

- 1تفاصيل الهدى ، المتمثلة في الثقافة التوحيدية ، و البصائر و القيم ، و المناهج المنبثقة منها ، و اشتمال رسالات الله على هذه التفاصيل دليل على انها وحي من عند الله ، اذ قد يهتدي بشر اوتي صفاء النفس الى بعض معاني الغيب ، و لكن انى للانسان ان يأتي بهذه المنظومة المتكاملة من البصائر الغيبية ، ان ذلك الا دليل اتصاله المباشر بالوحي.

- 2الحجج و الآيات التي تهيمن على النفس و العقل ، كالمعاجز ، و الخلوص من الهوى و المصلحة و التمحض للحق ، و هذا يهدينا الى ان الرسالات الالهية قائمة قبل كل شيء على الاقناع ، لانه الذي ينمي الايمان في النفس ، و يحركه بفاعلية اكبر ، و ابقى من اي عامل اخر ، و ربنا يقول : " سنريهم آياتنا في الافاق و في انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق " (١) ، ذلك ان الايمان الناتج من الاستجابة للبينات و الآيات هو الذي يخشع القلب و الجوارح لذكر الله و يطوعهما للرسول و لما نزل من الحق و للميزان ، و بالتاليبدفع المؤمن للقيام بالقسط ، و حينما يتخلف احد من المؤمنين عن الاستجابة للرسول و للوحي فان ذلك يدل على تزلزل في قناعاته.

و حيث لا يؤتي الايمان ثماره الا اذا تحول الى نظام تربوي ، اجتماعي ،(١) فصلت / ٥٣.

اقتصادي ، سياسي ، ثقافي شامل لجوانب الحياة ، يكفل للبشرية السعادة ، انزل الله شريعة متكاملة الى جانب البينات متمثلا بالكتاب.

]و انزلنا معهم الكتاب[

فاذا كانت البينات تؤمن القناعات الاولية فان الكتاب يؤمن النظام العملي الشامل المنطلق من الايمان ، و الذي يستهدف تكريسه بعمق في النفوس و الواقع ، و القيام بالقسط - هذا الهدف العظيم - انما يستمد شرعيته و شرعته منه.

و مع دلالة الانزال على المعنى الظاهر من الكلمة فانه يدل على الفرض ، و كل ما نزل من الخالق الى المخلوق فهو لازم و مفروض عليه القيام به . و من البديهي ان معرفتنا بالبينات ان الكتاب من الله تلزمنا

العمل به و تنفيذه.

]و الميزان[

الوسيلة التي نعرف بها مضامين الكتاب الخارجية ، مما يتكفله القضاء المرافعات و الخصومات.

و السؤال : ما هو الميزان ؟ هل هو العقل ؟ ام الامام العادل ؟ ام هذه المقاييس التي يزن الناس اشياء هم بها ؟

يبدو ان الميزان اساس هو المقياس الذي نعرف به تطبيق الحكم على الواقع الخارجي ، و هو لا يتم الا بالعقل و الامام و المقياس السليم . كيف ذلك ؟

اولا :ما جاء القرآن ليلغي دور العقل ، انما ليثير دفائنه بالاجتهاد في فهم حقائقه و احكامه و طريقة تطبيقه ، و ليقوم بدوره الحساس و الخطير في حياة البشرية.

ثانيا : ما جاء القرآن بديلا عن الامام) السلطة العادلة) حيث يجب التسليم للقيادة الشرعية في حدود قيم الكتاب ، فدور الامام يكمل دور الرسالة ، لذلك قال رسول الله (ص) : " اني قد تركت فيكم الثقلين ، ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي ، أحدهما اكبر من الآخر : كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الارض ، و عترتي اهل بيتي . الا و انهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض " (١) ، و قد اجمعت فرق المسلمين قاطبة على هذه الرواية ، مع حكم العقل بضرورتها ، اما قول الخوارج : (حسبنا كتاب الله) فانهباطل بشهادة الكتاب ، و شهادة العقل ، بل و شهادة التاريخ البشري حيث لم نعهد جماعة بلا سلطة تحكمهم ، و حتى الخوارج انفسهم ما عاشوا دون سلطة طول تاريخهم.

و ميزان الانسان في الدنيا هو ميزانه في الآخرة حيث يقول ربنا سبحانه : " يوم ندعو كل اناس بامامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فاولئك يقرأون كتابهم و لا يظلمون فتيلا (2) " ،قال الامام الرضا (ع) : " الميزان : امير المؤمنين نصبه لخلقه " ، "الا تطغوا في الميزان " قال : " لا تعصوا الامام " (٣. (

و العقل يعكس مقاييسه التي فطر عليها على مجموعة ادوات يقيس بها الاشياء . أرأيت ان العقل يعرف - عبر البصر - مدى قرب او بعد الاشياء ، و لكنه التماسا للدقة يعكس ذلك على ادوات العلم (المتر و الكيلومتر) ، كما يقدر العقل على معرفة مدى حرارة الجسم باللمس ، و لكنه يبدع المحرار ليكون أقرب الى الدقة ، و هكذا سائر الموازين . انها تجليات العقل على الطبيعة ، و من جهة اخرى انها(١) بح / ج ٢٣ / ص ١٠٦ و كنز العمال / ج ١ / ص ١٧٢ و (18) موضعا اخر.

(2)الاسراء / ٧١.

(3)نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٨٨ و قد مر في سورة الرحمن تفصيل حول معنى الميزان.

ادوات لحكم السلطة العادلة ، فلولا القوانين التي تنظم العلاقة و توزن مدى تطبيق القيم على الواقع لم يستطع الامام فرض العدل على الناس .. و هكذا كان الميزان اساس هو العقل (الذي هداه الله لمعرفة المقاييس و المقادير) ، و الامام الذي هو بمثابة العقل الظاهر، ثم الانظمة و الادوات القياسية ، لانها تهدي الناس للحق و العدل ، و لذلك جاء في التفسير : " نزل جبرئيل) ع) بالميزان (الكفتين و اللسان) فدفعه الى نوح ، و قال : مر قومك يزنوا به " (١. (

]ليقوم الناس بالقسط[

و اقامة الشيء تنفيذه على أصلح وجه ، و منه اقامة الصلاة اذا مارسها بوجهها الصحيح . و العوامل الثلاثة (البيان ، الكتاب ، الميزان) يكمل بعضها بعضا ، و هي كفيلة بأن توفر المناخ المناسب لاقامة القسط و لتحقيق هدف رسالات الله.

و القسط - حسب الرازي - و الاقساط هو الانصاف ، و هو ان تعطي قسط غيرك كما تأخذ قسط نفسك ، و العادل مقسط ، قال الله تعالى : " ان الله يحب المقسطين "، و القاسط الجائر ، قال تعالى : " و أما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا. (2) "

و حسب بعض اللغويين : قسط (بالفتح) قسطا (بالكسر : (عدل ، و قسطا (بالفتح) و قسوطا : جار و عدل عن الحق (٣) ، ثم اعتبر ذلك من الاضداد.

و انى كان فان مفردات استخدام الكلمة تدل على انها ليست مجرد بسط العدالة الظاهرة ، بل هي اقامة العدالة الواقعية التي فيها المزيد من الانصاف ، و إيتاء الحق(١) جوامع الجامع للطبرسي عند الاية .

(2)تفسير الرازي / ج ٢٩ / ص ٢٤٣.

(3)المعجم الوسيط (قسط. (

لاهله.

و الآية تصرح بأن اقامة القسط تكون بيد الناس انفسهم ، فلم تقل : ليقوم الرسل بالقسط بين الناس ، بل قالت : " ليقوم الناس بالقسط " ، و لو ان الناس تخلوا عن مسؤوليتهم تجاه العدالة فان القسط لا يقوم ، لان رسالات الله توفر للناس فرصة اقامة القسط، و لم يبعث الانبياء لفرض العدالة بالاكراه على الناس.

و قيام الناس بالقسط يعني العدالة ، و إقامة الحق في سائر جوانب حياتهم ، مع الله ، و مع الرسول ، و مع القيادة الشرعية ، و مع الناس ، بل و مع الحياة ، فيتقون الله حق تقاته ، ثم يختارون الامام العدل و يسلمون له و يتبعونه ، قال الامام الرضا (ع " : (و اقيموا الوزن بالقسط " : و اقيموا الامام بالعدل " (١) ، و يلتزمون الحق مع انفسهم باتباع القصد من دون افراط و لا تفريط ، و مع الناس فلا يبخسون ، و لا يطففون ، و لا يظلمون و لا يعتدون ، و لا ينقضون العهد ، و هكذا يلتزمون العدل في علاقتهممع الخليقة من حولهم ، فلا يفسدون في الارض بعد إصلاحها ، و لا يهلكون الحرث و النسل ، و لا .. و لا..

و لكن تبقى شريحة من الناس تخالف الحق ، من اجل هذا انزل الله الحديد وسيلة رادعة لتنفيذ القسط و اقامته بين الناس ، و لا ريب ان القوة ليست الوسيلة المناسبة دائما ، فما يقره الاسلام شرعية القوة في الحالات الخاصة لا شريعتها.

]و انزلنا الحديد[

قال الامام علي (ع " : (يعني السلاح و غير ذلك " (٢) ، مما يحقق الغرض منه ،(١) تفسير نور الثقلين / ج ٥ / ص ١٨٩.

(2)المصدر / ص ٢٥٠.

و هو الردع و تنفيذ القسط . و هذا الشطر من الآية معطوف على (الكتاب و الميزان) و لكن الله يذكر اولا الهدف من الحديد . لماذا ؟ يبدو لكي يبين بصيرة هامة ان العوامل المتقدمة هي الاهم ، و لا بد ان تكفي في الظروف العادية " ليقوم الناس (انفسهم) بالقسط " فلا يحتاجون الى اعمال الحديد و ذلك لان القوة التنفيذية في الاسلام تستمد قوتها الاساسية من الايمان لا من السيف . و هنا نتساءل : اذا لماذا انزل الله الحديد ؟ الجواب : انما لاولئك الجبابرة و الطغاة و المعاندين الذين قست قلوبهم عن وعي البينات والكتاب ، و عارضوا الميزان و القسط ، لمثل اولئك شرع الله استخدام السيف ، و رغب فيه ، فقد روي عن رسول الله (ص) انه قال : " الخير كله في السيف ، و تحت ظل السيف ، و لا يقيم الناس الا

السيف " (١) ، و قال الامام علي) ع) : " ان الله داوي هذه الامة بدوائين : السوط ، و السيف ، لا هوادة عند الامام فيهما " (٢) ، و قال الامام الصادق (ع) : " ان الله عز وجل بعث رسوله بالاسلام الى الناس عشر سنين ، فأبوا ان يقبلوا حتى امره بالقتال ، فالخير في السيف ، و تحت السيف ، و الامر يعود كما بدأ " (٣) ، و قال الامام امير المؤمنين (ع) : " السيف فاتق ، و الدين راتق ، فالدين يأمر بالمعروف ، و السيف ينهى عن المنكر ، قال الله تعالى : " و لكم في القصاص حياة " (٤. (

]فيه بأس شديد[

على الذين لا يقومون بالقسط)حيث الحدود ، و القصاص ، و سائر العقوبات الشرعية) ، و على الذين يظلمون و يحاربون العدالة (حيث الجهاد في سبيل الله) و استخدام الحديد كرمز للقوة ، باعتباره المادة الاساسية لصنع الاسلحة و وسائل(١) بح / ج / 100ص ٩.

(2)شرح ابن حديد / ج ١ / ص ٢٧٥.

(3)فروع الكافي / ج ٥ / ص ٧.

(4)غرر الحكم طبعة ايران المترجمة حكمة (2157)باب الالف.

القوة ، و هنا يطرح السؤالين التاليين : الاول : اذا كان الاسلام يؤمن بالحرية فلماذا القوة ؟ و الثاني : اذا كان الله سوف يحاسب الناس يوم القيامة فلماذا السيف و الجهاد في الدنيا ؟ و نجيب على ذلك:

اولا : الاسلام بين الحجة و القوة :

أبرز اهداف الاسلام تحرير الانسان من الاغلال ظاهرة و باطنة ، قال تعالى " : الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة و الانجيل يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر و يحل لهم الطيبات و يحرم عليهم الخبائث و يضع عنهم اصرهمو الاغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به و عزروه و نصروه و اتبعوا النور الذي انزل معه اولئك هم المفلحون " (١ (، بلى . الرسول يخرج الناس من ظلمات الجهـل و التخلف و الاستعباد ، الى نور العلم و التحضر و الحرية ، و لكن كيف ؟ هل بقوة المنطق ام بمنطق القوة ؟ لقد بينت ايات عديدة انه لا اكراه في الدين ، و ان الرسول ليس بجبار عليهم ، قال سبحانه : " لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي " ، و قال سبحانه : " نحن اعلم بما يقولون و ما انت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد " (٢) ، و تطبيقا لهذه الحقيقة في الواقع منع ربنا الرسول و المسلمين من اكراه الناس على الدخول في الدين الجديد ، فقال : " ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا أفانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين. (3) "

اذا لماذا القوة ؟ انما ضد فريقين : الاول : الذين يصادرون حرية الناس ، و يفرضون عليهم اغلالهم ، الثاني : الذين يخرجون على قوانين البلاد ، و يعيثون في(١) الاعراف / ١٥٧.

(2)ق / ٤٥.

(3)يونس / ٩٩.

الارض فسادا..

ثانيا : الاسلام و القوة و الحياة :

- 1اما لماذا القوة في الدنيا مادام الله يحاسب الناس في الآخرة فيجزي المحسن و المسيء ؟ فلأن الابتلاء لا يتم الا عند توافر شروطه ، فلو اطبقت على الارض حكومات الضلال و افرغت على الناس دعاياتها السامة ، دون ان تسمح لاحد بنشر الدعوة الى الله بينهم ، كيف تتم آنئذ حجة الله على سائر

العباد .اوليسوا كانوا يقولون : ربنا لم تبلغنا الدعوة اليك ، و لم نسمع عن رسولك شيئا ؟ اذا لا بد ان يسعى المؤمنون لتوفير جو الامتحان ليهتدي من اهتدى عن بينة ، و يضل من ضل عن بينة.

- 2ثم ان الذين يعارضون استخدام القوة من قبل المؤمنين لا ينظرون الى الجهاد الا من زاوية المضاعفات السلبية التي تستتبعه ، و بالذات من زاوية بطش الحكومات الفاسدة بالمجتمع و المجاهدين انفسهم ، في حين يجب عليهم النظر في زاوية المعطيات الايجابية للجهادعلى صعيد الدنيا حيث الحرية و الاستقلال و الامن و التقدم و سائر مضامين اقامة القسط و نتائجه ، و على صعيد الاخرة حيث رضوان الله و جنته ، و هذه بعض المنافع التي جعلها الله للحديد.

]و منافع للناس[

فالحديد سلاح يساهم في اقامة القسط ، و هو في ذات الوقت معدن يتدخل في كثير من الصناعات و مرافق الحياة.

و ان السعي لاقامة الحق و العدالة بين الناس يتسبب في صراع مصيري بين انصاره و رسله (حزبه) و انصار الباطل و ائمته (حزب الشيطان) فيميزهم عنبعضها ، فيحقق الهدف الاساس من حياتنا الدنيا الا و هو الابتلاء.

]و ليعلم الله من ينصره و رسله[

من المجاهديــن الذين يسعون نحو تحقيق الغاية من الرسالات و هي اقامة القسط ، بلى . السيف وسيلة ذلك ، و لكن سواعد المجاهدين هي التي تحمل السيف و تحارب به الاعداء ، فلا يزعم احد ان نصرة الله لدينه تتم بصورة غيبية دائما . و يعتبر المجاهدون هذه الغاية هيالاسمى لان اعظم اهدافهم بلوغ رضوان الله سبحانه ، الذي يعتبر الجهاد اقرب سبله.

و النصرة الحقيقية للحق لا تتحقق بمجرد الانتماء الى صفوف المؤمنين ، و رفع السيف ، و القتال ، و حسب ، كلا ... فهذا المظهر المطلوب ، بل المهم الى جانب ذلك ان تكون الدوافع توحيدية نابعة من الايمان بالله ، لذلك قال ربنا:

]بالغيب[

اما الذي ينتمي للمؤمنين و يقاتل معهم بدوافع و اهداف مادية و مصلحية ، او لان الاخرين نصروه ، او لاي شيء آخر لا يتصل بالغيب ، و هو رضى الله و جناته ، فلا تشمله الآية .. و مما يخلص دوافع الانسان و اهدافه علمه بأنه لا ينصر ضعيفا و لا ذليلا ، و انه تعالى لم يدعه للنصرة عن حاجة و عجز حتى يطلب المقابل و يفرضه عليه بعد النصر ، او يمن على ربه سبحانه.

]ان الله قوي عزيز[

و انما يكتسب المجاهدون من نصرتهم له قوة و عزة.

و كلمة اخيرة:

ان آية الحديد تشير الى نظام التجمع الاسلامي الذي يتمثل في الرسول و من ينوب عنه ، و في القوى الثلاث : التشريعية ، و رمزها (الكتاب) و دورها بيان الاحكام ، و القوة القضائية ، و رمزها (الميزان) اما مهمتها فهي تطبيق الانظمة على الواقــع لتحديــد المصاديــق و بيان كيفيــة التنفــيذ ، و القوة التنفيذية ، و رمزها (الحديد. (

كما تشير الآية الى شعار التجمع الاسلامي الذي يهدينا الى وجهته و صبغته العامة و المتمثل في قوله سبحانه : " ليقوم الناس بالقسط. "

و خاتمة الآية تهدينا الى الدافع الغيبي لنصرة الدين ، و الذي يعتبر الضمانة التنفيذية للاحكام ، و قوة التماسك الداخلية في التجمع الايماني.

[26]و يضرب القرآن مثلا تاريخيا لما بينته آية الحديد فيما يتصل بحركة الانبياء و من يتبعهم ، و ذلك من واقع نوح و ابراهيم (عليهما السلام) حيث كانا فاتحين لعهدين جديدين في تاريخ الرسالات الالهية.

]و لقد ارسلنا نوحا و ابراهيم[

و النبوة هي القيادة المعصومة المختارة من عند الله ، اما الرسالة فهي فوقها بدرجة حيث ان الرسول يحمل رسالة من ربه الى الناس.

و النبوة و الكتاب هما عهد الله ، و لا يناله الا الصالحون الصادقون ، الذين يمتحنهم الله ، قال عز من قائل : " و اذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال اني جاعلك للناس اماما قال و من ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين. "

و حيث تصدى ابناء نوح و ابراهيم (عليهما السلام) لقيادة البشرية عبرالاجيال ، و حملوا مشعل الهداية و نهجها للامم تلو الامم ، يظهر فضلهم على الناس.

]و جعلنا في ذريتهما النبوة و الكتاب[

و لكن مجرد كون النبوة و الكتاب في ذرية نوح و ابراهيم (عليهما السلام) لا يبرر نمو الحالة العنصرية عند اولادهم و اتباعهم.

]فمنهم مهتد[

هم الرسل و الانبياء و الاوصياء و من آمن بهم و اتبعهم.

]و كثير منهم فاسقون[

ضالون منحرفون ، لم يلتزموا بالكتاب ، و لم يقتفوا آثار الانبياء ، فالمقياس في الصلاح او الفساد ليس الانتساب و لا ادعاء المشايعة للصالحين ، انما المقياس الحق هو اتباع القيم الرسالية ، و التزام السلوك الصالح ، فلا صلاح القادة و حقانية القيم دليل هدى الامم و المجتمعات ، و لا ضلال الامم و المجتمعات و انحرافها دليل فسادهما ، و الى هذا يشير الامام الرضا (ع (حيث يقول مخاطبا المأمون و بعض العلماء في مجلسه : " اما علمتم انه وقعت الوراثة و الطهارة على المصطفين المهتدين دون سايرهم ؟ قالوا : و من اين النبوة يا ابا الحسن ؟ قال : قول الله عز وجل : " و لقد ارسلنا نوحا و ابراهيم و جعلنا في ذريتهما النبوة و الكتاب فمنهم مهتد و كثير منهم فاسقون " ، فصارت وراثة النبوة و الكتاب للمهتدين دون الفاسقين ، اما علمتم ان نوحا حين سأل ربه عز وجل فقال: " ان ابني من اهلي و ان وعدك الحق و انت احكم الحاكمين " ، و ذلك ان الله عز وجل وعده ان ينجيه واهله ، فقال له ربه عز وجل : " يا نوح انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لكبه علم اني اعظك ان تكون من الجاهلين " .)١(

[27]في سورة الحديد التي اتسمت بصفة الروحانية المتسامية و التي جاءت شفاءا ناجعا لمرض القسوة التي تصيب القلوب الغافلة عن ذكر الله ، في هذه السورة قرأنا آية الحديد التي حددت هدف الرسالة في اقامة القسط ، و لم تستبعد الحديد كوسيلة لتنفيذه . انه حقا توازن حكيم بين التعالي في افق الغيب و الحضور الفاعل في احداث الحياة.

و لذلك ايضا يتناول السياق قصة الرهبنة التي زاغت بالنصارى عن الطريق القويم ، كما انحرف اليهود من قبلهم حين ابتلوا بالنظرة العنصرية . و اذا عالجت الآية السابقة و بأشارة خاطفة عنصرية اليهود و غيرهم فان هذه الاية بينت بوضوح خطأ الرهبانية ، و ذكرت كلتاالآيتين بان الطريق القويم يتمثل في سنة الانبياء

الذين توالوا على البشرية برسالة واحد تحددت معالمها مع الزمن ، و ان الخط الواحد و المشترك الذي تهدي اليه سيرتهم جميعا هو الميزان في قياس الحق ، و هو يتمثل في القرآن كما نقرا ذلك في آيات لاحقة.

]ثم قفينا على ءاثارهم برسلنا[

واحدا بعد واحد يهدي بهم الله البشرية الى خط نوح و ابراهيم كلما فسقت وضلت عنه ، فهم يتبعون ذات النهج ، و يسعون الى ذات الاهداف ، و بذات الوسائل) البينات ، و الكتاب و الميزان ، و الحديد) ، و هكذا ينبغي ان تكون الاجيال اللاحقة في الامة مسؤولة عن مسيرتها ، تقتفي اثر الرواد الصالحين ، سيرا الى الحضارة و التكامل ... و حيث تفصلها العصور و الاجيال عن اولئك)النبي و ائمة الهدى) فان الكتاب و الامام خير مقياس لمعرفة المنهج القويم . بلى . ان(١) عيون اخبار الرضا / ج ١ / ص ٢٣٠.

عودتها الى الخط السليم ، و بالذات في مجتمع ذهب بعيدا في الضلال و الانحراف ، سيضعها امام تحديات صعبة ، و لكنها الطريق الوحيد نحو الهدى و السعادة ، و النجاة من الضلال و الشقاء.

]وقفينا بعيسى ابن مريم و اتيناه الانجيل[

و الانجيــل لم يكن مغايرا لتلك الرسالات ، انما هو متضمن لذات المفاهيم و القيم ، الا ان العنصرية التي انحدر اليها بنو اسرائيل من قبل نزول الانجيل ، و ما رافقها من النظرة المادية و قسوة القلب ، كانت بحاجة الى جرعات من الحنان و العطف و الزهد و الخشوع، و كانت كلمات الانجيل تفيض بذلك لمعالجة ذلك التطرف المادي الطاغي ، و هكذا زرع الله في قلوب التابعين لعيسى (ع) الرأفة و الرحمة بل الزهد و الرهبانية الطاهرة.

]و جعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة و رحمة[

لعل الرأفة هي العطف القلبي ، بينما الرحمة هي المظهر الخارجي لها مثل العطاء و خفض الجناح ، و قال البعض : ان الرأفة هي منع ما يضر ، بينما الرحمة هي توفير ما ينفع ، و مثل هذه الكلمات اذا ذكرت مفردة منها شملت معنى الجميع ، بينما اذا اطلقت اكثر من مفردة دلت كل واحدة على معنى خاص ، و كان ذكرها يدل على التأكيد ، مما يوحي بان الله جعل المزيد من العطف و الحنان في قلوب الذين اتبعوا عيسى (ع) . و حق لهم ذلك . او لم يكن قائدهم مثلا اسمى للزهد و الحنان و الخشوع و التبتل ؟

و الرأفة و الرحمة من اظهر و اعظم صفات الله في تعامله مع خلقه " ان الله بالناس لرؤوف رحيم (1) " ، و هكذا تستهدف الرسالات الالهية انقاذ الناس من الصفات(١) البقرة. 143 /

البشرية لتركز فيهم اخلاق الله ليكونوا ربانيين . و لعل عيسى (ع) جاء بالرأفة و الرحمة علاجا للقسوة التي اصابت بني اسرائيل حيث قال ربنا عنهم : " ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة او اشد قسوة و ان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار و ان منها لمايشقق فيخرج منه الماء و ان منها لما يهبط من خشية الله " . (١)و جعل الله لهما في قلوب اتباع المسيح (ع) لا يعني ابدا ان الله يرسل نبيا باللطف و الرحمة ، و يرسل الاخر بالشدة و الحديد ، او انهم لم يفرض عليهم الجهاد بالسيف و خوض اللجج لاقامة القسط اذا كانت الظروف تستدعي ذلك ، بل يعني ان الحالة الاجتماعية المتردية في القسوة و الفسوق لم تكن تعالج بالسيف بل بالرحمة و الرأفة ، و ربما الرهبانية.

ثم يبين القرآن تجربة مهمة من تجارب اتباع عيسى) ع) : لقد ظهرت الجبابرة و الطغاة من بعد عيسى ، و صارت مسيرة الاكثرية من الناس الى الفسوق و القسوة مماشاة لملوكهم ، و اتباعا للتحريف و البدع ، فاختلفوا على مذاهب شتى ، حيث سكت الاغلبية عن الطغاة ، و اتبعوا ادعياء الدين ، الا ان قليلا منهم قرر التحدي و لكن كيف ؟

انهم يواجهون نوعين من التحدي : التحدي السياسي ، و التحدي الاجتماعي المدعوم بقشور الدين

المحرف ، و امام كل ذلك يجب عليهم ان يحافظوا من جهة على مسيرتهم فلا يتابعون الطغاة او يستسلمون للدين المحرف ، و من جهة اخرى يجب ان يحافظوا على انفسهم الا يبادوا ،فوقع اختيارهم على الرهبانية التي تعني توثيق العلاقة بالله ، و اعتزال المجتمع الضال . هذه كانت خطتهم التي يرون فيها السبيل(١) البقرة / ٧٤.

الى اهدافهم ، و هي الالتزام بالانجيل ، و اتباع عيسى ، و المحافظة على اشخاصهم و حيثيات شخصيتهم ان تماث في الواقع الجديد ، و يلخصها القرآن في كلمة هي رضوان الله.

]و رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله]ماذا تعني هذه الفقرة من الآية ، فهل الرهبانية كتبها الله عليهم ، فماذا تعني اذا كلمة " ابتدعوها " ، و هل هم الذين استحدثوها ، فماذا يعني اذا قوله " : ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله " ؟

الذي يبدو لي : ان لفظة الرهبانية معطوفة على قوله سبحانه : " و جعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة و رحمة " ، حيث ان الله اوجد فيها عبر الانجيل و عبر سيرة المسيح عيسى بن مريم (ع) ثلاثة انوار : نور الرأفة و نور الرحمة و نور الخشية من الله و الرهبانية ، و لكنهم ابتدعوا هذه الرهبانية و غيروا فيها ، كما ان الزهد اساسا فضيلة دعى اليها الاسلام الا ان طائفة من المسلمين ابتدعوها و جعلوا لها وسائل غير لائقة مما دعى ائمة المسلمين الى التبرء منهم.

اذا الابتداع لم يكن في أصل الرهبانية التي تعني الخشية من الله ، و انما في فروعها من اعتزال المجتمع في الاديرة ، و وضع طقوس خاصة بها ، و على هذا التفسير يكون قوله سبحانه : " ما كتبناها عليهم " تبيانا للابتداع حيث ان الله كتب الرهبانية عليهم بهدف ابتغاء مرضاته فما رعوها حق رعايتها فحرفوها.

و قال البعض : ان الآية تشير الى انهم ابتدعوا اصل الرهبانية ابتغاء رضوان الله ، و ان الله لم يكتبها عليهم .

و قالوا : ليس بالضرورة ان يكون الابداع مكتوبا بحذافيره في الرسالة ليكونمشروعا ، بل يكفي ان يكون موافقا و قيم الرسالة و الاصول و القواعد العامة فيها ، لان المهم ان ينطلق من الكتاب ، و ينتهي اليه ، و يلتزم به بتصديق الميزان . و هذا من مرونة الدين ، و قدرته على قيادة الحياة المتطورة ، و هو يؤيد الابداع ، مادام في حدود رضواناالله و شريعته ، و من هنا فأن الرهبانية جيدة ان لم تؤد الى:

- 1التشبث بظاهر الامور على حساب القيم.

- 2و اعتــزال المجتمــع و تكفيره دون الشهادة عليه و السعي نحو تغيير واقعه.

- 3و التقاعس عن الواجبات الاجتماعية.

- 4و ابتزاز الناس ، و اكتناز الذهب و الفضة ، و الصد عن سبيل الله.

و ما الى ذلك ، و هو افراغ للرهبانية من مضامينها الحقة التي تعني الحقائق التالية:

أ : خشية الله ، و التقرب اليه بالتبتل ، و الزهد في حطام الدنيا.

ب :الاحتياط في الدين ، و الاجتهاد في العبادة ، و اداء حقوق الناس ، و اقامة احكام الله على وجهها الصحيح لتحقيق اهداف الدين و مقاصد الشريعة من خلالها ، و جعل رضوان الله هو الغاية دون تكريس العصبيات و الانانيات.

ج :اعتزال الناس تمهيدا لتغييرهم ، و التقية و الهجرة من اجل الجهاد ، دون جعلها هــدفا بذاته و وسيلة لترك الامر بالمعروف و النهي عن المنكر و اقامة حدود الله.

]فما رعوها حق رعايتها[

و بلغ بهم الامر الى درجة استغل ادعياء العلم و الدين الناس باسمها ، و صدوهم عن السبيل ، قال تعالى : " ان كثيرا من الاحبار و الرهبان ليأكلون أموالالناس بالباطل و يصدون عن سبيل الله " . (١(

جاء في مسند احمد بن حنبل : خرجنا مع رسول الله (ص) في سرية من سراياه ، فقال : مر رجل بغار فيه شيء من ماء ، فحدث نفسه بأن يقيم في ذلك الغار ، فيقوته ما كان فيه من ماء ، و يصيب ما حوله من البقل ، و يتخلى عن الدنيا ، فقال : لو انني اتيت النبي) ص) فذكرت ذلك له ، فان اذن لي فعلت ، و الا لم افعل ، فأتاه فقال : يا نبي الله انني مررت بغار فيه ما يقوتني من الماء و البقل ، فحدثتني نفسي بان اقيم فيه و اتخلى عن الدنيا ، قال : فقال النبي (ص) : " اني لم ابعث باليهودية و لا بالنصرانية (يعني ما عليهاليهود و النصارى من التحريف (، و لكنني بعثت بالحنيفية السمحة ، و الذي نفس محمد بيده لغدوة و روحة في سبيل الله خير من الدنيا و ما فيها ، و لمقام احدكم في الصف الاول خير من صلاته ستين سنة " . (٢)و يعضد هذا ما جاءت به الرواية عن ابن مسعود قال " : كنت رديف رسول الله (ص) على الحمار فقال : يا ابن ام عبد ! هل تدري من اين احدثت بنو اسرائيل الرهبانية ؟ فقلت : الله و رسوله اعلم ، فقال : ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى (ع) يعملون بمعاصي الله، فغضب اهل الايمان فقاتلوهم ، فهزم اهل الايمان ثلاث مرات ، فلم يبق منهم الا القليل ، فقالوا : ان ظهرنا لهؤلاء افنونا و لم يبق للدين احد يدعوا اليه ، فتعالــوا نتفــرق في الارض الى ان يبعث الله النبي الذي وعدنا به عيسى) ع) (يعنون محمدا (ص)) ، فتفرقوا في غيران الجبال ، و احدثوا رهبانية ، فمنهم من تمسك بدينه ، و منهم من كفر ، ثم تلا الآية : " و رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ... الى اخرها " ثم قال : يا ابن ام عبد اتدري(١) التوبة / ٣٤.

(2)الجامع لاحكام القرآن.

ما رهبانية امتي ؟ قال :الهجرة و الجهاد و الصلوة و الصوم و الحج و العمرة. "

و في حديث اخر انه قال : " يا ابن مسعود ! اختلف من كان قبلكم على اثنين و سبعين فرقة ، نجا منها ثنتان و هلك سايرهم ، فرقة قاتلوا الملوك على دين عيسى فقتلوهم ، و فرقة لم يكن لهم طاقة لموازاة الملوك ، و لا ان يقيموا بين ظهرانيهم يدعونهم الى دين الله تعالى و دين عيسى ، فساحوا في البلاد و ترهبوا ، و هم الذين قال الله : " و رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم " ، ثم قال النبي (ص) : من آمن بي و صدقني و اتبعني فقد رعاها حق رعايتها ، و من لم يؤمن بي فاولئك هم الهالكون " . (١)و هذه الرواية في الواقع موافقة لما نعرفه من مقاييس الشرع ، و هي تفسر الرواية التي تنقلها المذاهب الاسلامية كلها عن النبي (ص) بان الامة سوف تفترق بعد (٧٣ (فرقة كلها هالكة الا واحدة ، و هي التي تقاتل الطغاة . اما الذين يعتزلون الساحة ، و يتفرجونعلى صراع الحق و الباطل ، او الذين يتابعون الملوك و التيار العام في المجتمع صحيحا كان او مخطئا ، فليسوا من الناجين ، و من هن يتضح لنا ان الحديث الذي يشير الى ان الفرقة الناجية من امة محمد (ص (هي التي تتبع الجماعة و الاكثرية و لا تخالف الجبابرة و الطغاة هو حديث موضوع على يد حكام الجور و من ايدهم من ادعياء الدين.

و مع ان الفرق و المذاهب التي يصير اليها الناس كثيرة الا ان القرآن يصنفها الى خطين : خط الحق و خط الباطل.

]فئاتينا الذين آمنوا منهم[

(1)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢٥١ - ٢٥٢ / الجامع لاحكام القران للقرطبي / ج ١٧ / ص ٢٦٥.

بعيسى)ع) و اتبعوه قبل ان يتوفاه الله ، او حافظوا على ايمانهم بعده فكانوا ممن رعى الرهبانية حق رعايتها ، و لما جاء الرسول (ص) امنوا به و اتبعوه .

]اجرهم[

و الاجر هو الجزاء في مقابل شيء ، و المؤمنون من اهل الكتاب يعطيهم الله اجرهم مقابل الايمان و العمل الصالح ، و ليس لمجرد انتمائهم الى دين المسيح (ع) و مجتمعه و اشياعه . و ينسف القرآن النظرية العرقية و العنصرية لدى الضالين من اهل الكتاب فيقول:

]و كثير منهم فاسقون[

ضالون منحرفون يدخلون النار ، لا تنفعهم عنصريتهم ولا انتماءاتهم اللفظية.

[28]و اذا كانت الرهبانية القائمة اليوم بدعة زائفة عن السبيل ، فما هي الوسيلة التي تقربنا الى ربنا اكثر فاكثر لمن اشتاق الى الزلفى اليه سبحانه ، و نيل مرضاته و حبه و الدرجات العلى من جناته ؟

في خاتمة سورة الحديد - سورة التبتل و الجهاد - يبصرنا ربنا بالوسيلة التي يتخذها من شاء ان يتخذ الى رضوان ربه سبيلا.

و يوجه ربنا الخطاب الى المؤمنين بالله جميعا مما يشمل الفريق الاول من اهل الكتاب ، و كذلك المؤمنين في عهد النبي محمد (ص) لا يفرق بين احد منهم ، يدعوهم الى صدق الايمان و التقوى بترغيب في رحمته و فضله.

]يا ايها الذين امنوا[

و انها لكرامة ان يخص الخالق فريقا من خلقه بحديث من ذكره ، و انه لمن الشقاء ان يتلهى المؤمنون عن هذا الحديث ، فلا تخشع له قلوبهم ، و لا تسعى اليه جوارحهم ! من هنا يسارع المؤمنون حقا عندما يسمعون هذا النداء الى القول : لبيك اللهم لبيك.

لماذا القرآن الكريم يخص النداء بالمؤمنين حينا و يخاطب الناس احيانا ، علما بان آياته تتسع كل تال لكتاب ربه ؟

ربما لان الايمان شرط اساسي في الموضوع . الا ترى كيف ان القرآن يعمم الخطاب للناس في غير ذلك ، مثل القضايا العلمية التي لا يشترط الايمان في تنفيذها كالنفاذ من اقطار السماوات و الارض ، فيقول : " يا معشر الجن و الانس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطارالسماوات و الارض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان (1) "، و يقول : " يا ايها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب " (٢) ، او فيما يتصل بحكم يشمل الناس جميعا كالعلاقة بين الشعوب في قوله سبحانه : " يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر و انثى و جعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا " (٣) . اما هنا فان العمل بالمضمون يحتاج الى الايمان فلا يقفز الانسان من الكفر الى الايمان بالرسول ، بل لابد ان يؤمن بالله اولا ثم برسوله ، كذلك لا يقفز من الكفر الى التقوى التي هي من مراحل الايمانالمتقدمة الا بعد الايمان بالله و الرسول.

(1)الرحمن / ٣٣.

(2)الحج / ٥.

(3)الحجرات / ١١.

]اتقوا الله[

و بعبارة : ان المسافة بين الانسان و بين الاستجابة للوحي و اتباع القيادة الرسالية مليئة بالتحديات و الضغوط ، و لا يقدر الانسان على طيها الا بزاد التقوى التي يواجه بها اشواك الطريق.

]و آمنوا برسوله[

فهو محك الايمان و التقوى ، و ما هي قيمة ايمان لا يتحول في واقع الانسان الى ولاء ديني ، اجتماعي ، سياسي عملي ، للقيادة الرسالية الصالحة ، و يصوغ شخصية الانسان صياغة ربانية بعيدة عن قوالب التحزب الاعمى ، و العصبية الضيقة ، و القومية المحدودة ، و الوطنية الزائفة ، و ... و ... ؟

ما قيمة الايمان الذي لا يصنع مجتمعا صالحا ، يعمر الارض ، و ينصر الضعفاء و يقاوم الطغاة و المجرمين ؟ بلى . انه سوف يواجه ضغوط القيادات المنحرفة ، و المجتمع من حوله ، و لكن ليعلم ان ما يجده مع التقوى و اتباع القيادة خير مما يفوته من حطام الدنيا.

]يؤتكم كفلين من رحمته[

قيل :الكفل هو ما يشد الراكب الى سنام الابل ، و يتكفل بإجلاسه عليها (١) ، و لكل فرد كفل ، فتطور المعنى و الاستخدام حتى اصبحت الكلمة تعني النصيب الكامل للشخص ، و الذي يتقي الله و يؤمن بالرسول ينال نصيبين و حظين ، فلا يخسر الدنيا بسبب الترهب الزائد عن حده ، كما هو حال بعض اهل

(1)في التفسير الكبير قال المفضل بن سلمة : الكفل : كساء يديره الراكب حول السنام حتى يتمكن من القعود على البعير.

الكتاب ، و لا يخسر الآخرة بسبب الالتصاق المفرط بالدنيا ، كما يستوى الى ذلك الكثير من المؤمنين الذين قدم لهم الله التعريف بالدنيا و الدعوة الى الاخرة في الآيات (١٩ - ٢٤) ، و الكثير من الناس ، فالاسلام منهاج متوازن يريد لاتباعه الدنيا و الاخرة ، فعن ابي الجارود قال : قلت لابي جعفر (ع) : لقد آتى الله اهل الكتاب خيرا كثيرا ، قال : و ما ذاك ؟ قلت : قول الله عز وجل : " الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون " الى قوله : " اولئك يؤتون اجرهم مرتين بما صبروا " قال : فقال : قد آتاكم الله كما آتاهم ، ثم تلا : " يا ايها الذين امنوا اتقوا و آمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته " . (١)[و يجعل لكم نورا تمشون به[

نتيجة التقوى و الايمان بالرسول . قال البعض : اي يوم القيامة ، و هو النور المذكور في قوله : " يسعى نورهم " (٢) ، و لكن ما الذي يجعل هذا النور محدودا بالاخرة ؟ اوليست حاجة الانسان الى النور قائمة في الدنيا ايضا ؟ قال تعالى : " او من كان ميتا فأحييناه و جعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها " (٣) . هكذا يبدو ان النور الذين جاء في هذه الآية و في تلك هو البصيرة في الحياة و التي تتمثل يوم القيامة نورا ساطعا.

لماذا جيء بنا الى الحياة الدنيا ، و ما هي اهدافنا الكبرى فيها ، و ما هي سنن الله الحاكمة ، و اختلاف الناس و ما هو الموقف المناسب و الموازين الحق كيف نعرف بها امورنا ؟ و عشرات من البصائر القرآنية التي يؤتيها ربنا الذين آمنوا و اتقوا.

(1)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢٥٤.

(2)التفسير الكبير عند الآية يتابع الكشاف.

(3)الانعام / ١٤٢.

و تجسد القيادة الرسالية هذه البصائر فيما تطرحه من مواقف او تصدره من اوامر ، لذلك فهي ايضا نور للمتقين المتمسكين بها.

و مع ان مصدر النور هو الوحي الا اننا بحاجة الى القيادة الربانية ، لانها الاقرب الى حقائق الوحي ، فهي المرآة الصافية التي تعكس حقائقه بصدق و امانة و وعي ، و ما احوجنا الى هذا النور و نحن نعيش في عالم كثرت فيه البدع ، و المذاهب الضالة ، و وسائل الاعلام و الثقافة المضللة.

قال الامام الباقر (ع) : " نورا تمشون به " يعني إماما تأتمون به " (١) و هكذا عن الصادق (ع) . و ان المهم ليس ان يتحرك الانسان او يمشي ، ان المهم ان تكون حركته في الطريق المستقيم نحو الاهداف التي خلق من اجلها ، و هو لا يصير الى ذلكالا بالنور ، و الله هو الذي يجعله في قلبه " يهدي الله لنوره من يشاء " (٢) ، و الجعل اما يكون مباشرا عبر الوحي و اما غير مباشر عبر المقاييس و الموازين التي يشخص بها القائد للناس.

و حينما يضيف الانسان الى ايمانه التقوى و اتباع القائد الصالح فان ذلك سيطهر قلبه و سلوكه من الانحرافات و الذنوب ، فالتقوى تخلص نيته و تدفعه للطاعة كما تجنبه المعصية ، و القيادة تنير له الدرب ليشق طريقه على بصيرة و هدى.

]و يغفر لكم و الله غفور رحيم[

[29]التقوى هي المقياس لا الاعتبارات العرفية و العنصرية و القومية و المادية او غيرها لانها ساقطة في الاسلام ، و تبقى قيمة هي التقوى كما قال الله : " يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر و انثى و جعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا ان(١ (نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢٥٢.

(2)النور / ٣٥.

اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير " (١) ، و يؤكد القرآن هذه القيمة في مئات المواضع ، كما يؤكدها هنا مرتين : مرة بتعميم الخطاب لكل المؤمنين ، دون اشتراط صفات و اعتبارات مادية ، و مرة عندما يصرح بان السبل مشرعة الى فضل الله للجميع.

]لئلا يعلم اهل الكتاب الا يقدرون على شيىء من فضل الله]في الآية وجهان ، يكون المعنى على الوجه الاول : لكي لا يقطنوا من روح الله و فضله فيبرروا بذلك عدم ايمانهم بالرسول (ص) و الكتاب الجديد ، او يبرروا عدم سعيهم الى الرحمة و الفضل ، كلا .. فدعوة الله و وعده للجميع.

اما على الوجــه الثاني فيكون المعنى : لكي لا يظن اهل الكتاب (النصارى و اليهود) ان الفضل حكر عليهــم ، و ان المؤمنين المسلمين لا سبيل لهم الى فضله تعالى ، كلا..

]و ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء[

يبدو ان اهل الكتاب كانوا يعيشون عقدتين خطيرتين : الاولى : انهم العنصر الاسمى فالفضل لهم لا لغيرهم ، الثانية : انهم لو آمنوا لا يتساوون في الفضل مع السابقين من المسلمين لانهم عرب و هم غرباء ، او لاي سبب اخر.

و خاتمة الآية (و ربما فاتحتها ايضا) تنفي كلتا العقدتين ، لان الفضل بيد الله فانه يؤتيه للمسلمين كما اتاه سابقا لاهل الكتاب عندما آمنوا برسلهم ، ثم لان الفضل بيد الله فانــه لا يميــز بين عربــي و اعجمي ، و سابق و لا حق ، و مواطن و اجنبي (حسب التعبير الحديث) ، و قرشي و حبشي ، فكل من آمن و اتقى شمله الله(١) الحجرات / ١٣.

بفضله .. و بهذا نجمع بين وجهي التفسير الذين ذكرناهما آنفا حول الآية.

]و الله ذو الفضل العظيم[

الذي يتسع لكل انسان سعى له سعيه ، فمن اراد منع غيره عنه ، او تصور انه لا يتسع له فانما يستصغر فضل ربه و يستقله ، و هذا شأن النفوس المريضة بعقد الاحساس بالحقارة و الدونية ، و المريضة بالعنصرية و الحسد ، و هذا و ذاك لا يمت الى الايمان بصلة . و الآيةتشبه الى حد بعيد قوله تعالى : " سابقوا الى مغفرة من ربكم و جنة عرضها كعرض السماء و الارض اعدت للذين آمنوا بالله و رسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء و الله ذو الفضل العظيم " (١ (، فربنا يدعو الى التسابق بين المؤمنين ، لا الى التوقف بسبب اليأس ،و لا الى الصراع بسبب النظرة العنصرية . و لعل ما ورد في مورد نزول الآية يشير الى بعض ما سبق ذكره..

في مجمع البيان قال سعيد بن جبير : بعث رسول الله (ص) جعفرا في سبعين راكبا الى النجاشي يدعوه ، فقدم عليه و دعاه ، فاستجاب له و آمن به ، فلما كان عند انصرافه قال ناس ممن آمن به من اهل مملكته و هم اربعون رجلا : ائذن لنا فنأتي هذا النبي فنسلم به ، فقدموا مع جعفر ، فلما راوا ما بالمسلمين من الخصاصة استاذنوا و قالوا : يا نبي الله ان لنا اموالا و نحن نرى ما بالمسلمين من الخصاصة فان اذنت لنا انصرفنا فجئنا باموال فواسينا المسلمين بها ؟ فاذن لهم فانصرفوا فأتوا بأموالهم فواسوا بها المسلمين ، فأنزل الله تعالى فيهم : " الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون " الى قوله : " و مما رزقناهم ينفقون " فكانت النفقة التي واسو بها المسلمين ، فلما اسمع اهل الكتاب ممن لم يؤمن به قوله : " اولئك يؤتون اجرهم مرتين بما صبروا " فخرواعلى المسلمين فقالوا : يا معشر المسلمين اما من آمن(١) الحديد / ٢١.

بكتابكم و كتابنا فله اجر فأجوركم فما فضلكم علينا ؟ فنزل : " يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله و آمنوا برسوله .. الآية " فجعل لهم اجرين و زادهم النور و المغفرة ، ثم قال : " لئلا يعلم اهل الكتاب. " ...

و قال الكلبي : كان هؤلاء اربعة و عشرين رجلا قدموا من اليمن الى رسول الله (ص) و هو بمكة ، لم يكونوا يهودا و لا نصارى ، و كانوا على دين الانبياء ، فأسلموا ، فقال لهم ابو جهل : بئس القوم انتم و الوفد لقومكم ، فردوا عليه : " و ما لنا لا نؤمن بالله .. الآية " فجعل الله لهم و لمؤمني اهل الكتاب عبد الله بن سلام و اصحابه أجرين اثنين ، فجعلوا يفخرون على اصحاب رسول الله) ص) و يقولون : نحن افضل منكم لنا اجران و لكم اجر واحد ، فنزل : " لئلا يعلم اهل الكتاب ... الى آخر السورة " . (١(

(1)مجمع البيان / ج ٩ / ص ٢٤٤.

سورة المجادلة

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في ثواب الاعمال للشيخ الصدوق (رض) باسناده عن ابي عبد الله (عليه السلام (انه قال : " من قرا سورة الحديد و المجادلة في صلاة فريضة ادمنها لم يعذبه الله حتى يموت ابدا ، و لا يرى في نفسه و لا في اهله سوءا ابدا ، و لاخصاصة في بدنه. "

ثواب الاعمال و عقاب الاعمال / ص ١٤٥

الاطار العام

للنفس حرم تنطوي فيه و تتحصن داخله عن بصائر الوحي و ضياء العبر و العظات ، و ما لم يخرق الانسان بعزائم اليقين حجب النفس الى حرمها فانه لن يفلح . و لكن كيف يتم ذلك ، و بماذا ؟

انما بمعرفة الرب ، و انه سميع بصير . ان وعي شهادة الله على كل شيء كفيلة بتنمية الوعي الديني في النفس ، هنالك في تلك الاغوار التي تنضج قراراتها و تتحدد وجهتها ربما بعيدا عن وعي صاحبها ، هنالك يصلح الايمان ما تفسده و ساوس الشيطان.

و لعل في سورة المجادلة نورا نافذا الى ذلك البعيد الباطن ، الى ذلك الغور العميق ، الى ذلك الحرم المستور في النفس البشرية ، و هذا الاطار يجمع حسبما يبدو لي بين محاور السورة التي تتراءى بادىء النظر انها متباينة . كيف ذلك ؟

الف (في فاتحة السورة و في بداية الجزء الثامن و العشرين من الذكر الكريم يتلو علينا الرب كلمة السمع ، فالله سمع قول التي جادلت الرسول في قصة الظهار و اشتكت الى الله ، و سمع تحاورها و الرسول ، و انه سميع بصير.

ب (و بعد ان يسوق الذكر احكام الظهار و يحدد كفارته يقول : " ذلك لتؤمنوا بالله و رسوله " مما فسر بانه يعني تنمية روح الايمان ، لان المفروض انهم مؤمنون.

فاذا الحكمة من الكفارة تنمية الايمان في النفس ، على ان الظهار يتم في العلاقة الزوجية التي هي من الامور الشخصية و المستورة عادة ، و انه موقف خاص لا يمكن ضبطه الا بالايمان و بروح التقوى ، كما ان كفارته كبيرة ، و الدافع الجنسي الذي يقف الظهار دونه متصاعد ، و ضمن هذه الظروف لا ينظم العلاقة سوى الوازع النفسي الذي تصنعه معرفة الانسان بربه و بانه سميع بصير.

ج) و بعد ان ينذر السياق الذي يتجاوزون حدود الله (و منها احكام الشريعة في الظهار) يذكرنا بيوم البعث حيث ينبىء الله الكافرين بما عملوا ، و يبين انه قد احصى ما لم يحفظوه و انه شاهد على كل شيء . و كل هذه البصائر تنمي روح التقوى في النفس ليس في ابعادها الخارجية بل في حرمها المستور.

د) و عبر اربع آيات بينات يعالج الذكر موضوعة النجوى التي تتصل بتنمية الوعي الايماني في النفس ، مؤكدا - اولا - ان الله سبحانه حاضر عند كل نجوى ، فما من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ، و لا خمسة الا هو سادسهم ، ثم ينذر الذين يتناجون بالاثم و العدوان ، و يتحدون عذاب الله ، و يكفرون بالنذر قائلين : لماذا لا يعذبنا الله بعد التناجي ؟ حسبهم جهنم ، و يرسم القرآن حدود النجوى المسموح بها ..عندما يتم التناجي بالبر و التقوى ، و ينفي اي اثر لتناجي الكفار ، و يأمر المؤمنين بالتوكل على الله.

و من الواضح : ان التقوى هي وحدها التي تضبط النجوى من الانحراف في الاثم و العدوان و معصية الرسول ، و بما ان هدف تناجي الكفار التعالي يوصي ربنا المؤمنين بالتواضع لبعضهم بالتفسح في المجالس ، و تركها اذا امروا بها ، و يبين ان الله هو الذي يرفع المؤمنينو اهل العلم درجات (بدرجات ايمانهم و علمهم) ، و انه ليس انتخاب المجالس القريبة من القيادة او طول المكث عندها سبب التعالي كما يحسب الكفار و المنافقون.

و يأمر المؤمنين بإيتاء الصدقة قبل تناجي الرسول (لكي لا يتسابقوا الى ذلك طلبا للفخر) ، ثم يتوب عليهم رعاية لهم لانهم اشفقوا عن تقديم الصدقات.

هـ) و يعالج السياق بعدئذ موضوعة البراءة من الكفار التي تتصل ايضا بالوعي الايماني ، و ينذر المنافقين الذين يتولونهم واقعا ، ثم يتخذونه ايمانهم جنة حيث يحلفون على الكذب انهم مؤمنون حقا (كل ذلك طلبا للثروة و القوة ، و لا يعلمون انهما لا تنفعانهم شيئا. (

و يبين القرآن ان الاموال و الاولاد لا تنفع يوم القيامة حيث يبعثهم الله ليحاسبهم فاذا بهم يحلفون له عبثا كما يحلفون للمؤمنين في الدنيا.

و) و ما يفرق بين المؤمن و المنافق ليس تلك المظاهر (مناجاة الرسول ، و التقرب المكاني منه ، و التأكيد على صدق الايمان بالحلف الكاذب) ، انما هي تلك الحقائق (التحسس بشهادة الله ، و الكفارة عند الظهار ، و مراعاة حدود الله و احكامه ، و التواضع لاولياء الله ، و البراءة من اعداء الله) ، و بها يتميز حزب الشيطان عن حزب الله فأن حزب الشيطان هم الخاسرون ، و هم الذين يتجاوزون حدود الله (و يتولون اعداء الله) ، و لقد كتب الله بغلبة رسله ، و اكد ان المؤمنين حقا لا يتولون من حاد الله حتى ولو كانوا من ذوي قرباهم ، لان الله قد ثبت

قلوبهم على الايمان ، و ايدهم بروح منه ، و اعد لهم جنات خالدين فيها ، و قد رضي عنهم و رضوا عنه ، و اعتبرهم من حزبه . الا ان حزب الله هم المفلحون.

و انهم ليقولون منكرا من القول و زورا
هدى من الآيات

في قضية عائلية كالظهار ، و عند تحاور خاص بين الرسول و واحدة من المسلمات بشان مشكلتها هذه ، ينزل الله قرآنا . اي شهادة اكبر من شهادة الرب على الحوادث الواقعة ، ام اي حضور فاعل للوحي في يوميات الامة ! بلى . ان الله يسمع تحاورهما.

و لقد كانت العرب ترى ان الرجل اذا قال لزوجته) : انت علي كظهر امي) حرمت عليه ابدا ، و كان ينطوي هذا الحكم على ظلم كبير للمرأة التي لا تعاشر انئذ معاشرة الازواج ، و لا تسرح لتتزوج من رجل اخر.

لقد كان الظهار من العادات الجاهلية التي فتت الكثير من الاسر قبل بزوغ نور الاسلام ، و قد تعود عليها المجتمع ، و بقي ايمان الكثير بها الى ما بعد اسلامهم ، و حيث اراد الله لرسالته ان تكون بديلا عن الجاهلية فقد نزل الوحي يدافع عن الاسرة باعتبارها اذا صلحت و قويت كانت اساس بناء المجتمع و الحضارة ، و منهذا المنطلق حارب القرآن فكرة الظهار ، و اعتبرها منكرا و قولا زورا ، لا يبررهم شـــرع الله و لا الواقــع ، فان قــول الرجل لزوجته :انت علي كظهر امي لا يصيرها اما له ، " ان امهاتهم الا اللائي ولدنهم و انهم ليقولون منكر من القول و زورا " ، يشبهو لكن بصورة اعظم خطرا عند الله و في واقع المجتمع فكرة الادعياء التي عالجها الذكر الحكيم في سورة الاحزاب . (١)و في الوقت الذي تسفه سورة المجادلة فكرة الظهار كما يتصورها الجاهليون من المسلمين ، بأنها لون من الطلاق الدائم الذي لا تصح بعده الرجعة ، تؤكد هذه السورة بأن الرجعة ممكنة حفاظا على كيان الاسرة و المجتمع و رعاية لعواطف الانسان ، و لكنها تفرض كفارة عليها قلبها (تحرير رقبة ، او صيام شهرين ، او اطعام ستين مسكينا) ، و ذلك يعني ان الاسلام يعتبر الظهار امرا مشروعا ، انما اراد بذلك الوقوف امام تأثر المسلمين بالجاهلية من جهة ، و دفعهم من جهة اخرى الى اخذ شرائعهم و ثقافتهم من مصدرها الصحيح و الاصيل ، " ذلك لتؤمنوا بالله و رسوله و تلك حدود الله " ، و ما دون ذلك فهو صنيع الجاهلية الضالة الكافرة ، و الذي ينبغي الاستغفار منه ، لان الايمان و العمل به يستوجب غضب الله و عذابه ، " و للكافرين عذاب اليم. "

بينات من الايات
و تناجوا بالبر و التقوى
هدى من الآيات

لكي يتحسس القلب شهادة الله على كل شيء فيتجنب خواطر السوء ، و يتقي وساوس الشيطان ، و يتحصن ضد النفاق و التآمر ضد الاسلام و القيادة الشرعية ، جاءت آيات الذكر ترينا علم الله بما في السماوات و ما في الارض ، و تبصرنا بحضورنا عنده ، فما من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ، و لا خمسة الا هو سادسهم ، و انه جل شأنه معنا اينما كنا ، ثم تحذرنا من حسابه و جزائه يوم القيامة.

و لعل هذه الآية هي محور سورة المجادلة التي تذكر بالحضور الالهي ، و ما اعظمه رادعا عن المعاصي ، و باعثا نحو الطاعات ؟ و لكن لا يدع السياق القضية بلا شرائع تتجلى فيها شهادة الله ، اذ يرينا كيف تآمر المنافقون (الذين لم يراقبوا ربهم) فتناجوا بالاثم والعدوان ، و معصية الرسول ، و لم يراعوا آداب

التعامل مع الرسول ، ثم نهى القرآن المؤمنين من التناجي بالاثم و العدوان ، و امرهم بان يتناجوا بالبر و التقوى ، و ذكرنا بان النجوى من الشيطان ، و هدفه من ذلك بعث الحزن في قلوبالمؤمنين ، الذين طمأنهم السياق بأنه ليس بضارهم شيئا الا باذن الله ثم أمرهم بالتوكل عليه . لان هدف المنافقين من تآمرهم التعالي على المؤمنين كما يبدو فان السياق اشار الى سيئة من سيئات سلوكهم متمثلة في اختيار صدر المجالس و التسمر فيها ، فأمر الله المؤمنين بالتفسح في المجالس ، و ذكرهم بأن العزة ليست بالمجالس القريبة من الرسول ، و انما بالايمان و العلم.

كما اشار الى مزاحمتهم للرسول بالنجوى معه) لاظهار انهم الأقرب اليه) فأمر المؤمنين بدفع الصدقات قبل النجوى معه ، ثم الغى هذا الامر بعد ان عرف المنافقون ، بل علم خواء كثير من نجوى غيرهم مع الرسول ، و عدم اهميتها عند اصحابها ، لانهم اشفقوا من تقديم الصدقات قبلها.

بينات من الآيات
اولئك حزب الله
هدى من الآيات

في سياق الحديث عن مصدر الايمان في واقع الانسان ، و ضرورة تحسسه الدائم بشهاة الله سبحانه عليه ، نتساءل : ما هو المقياس الحق للايمان الصادق ، و للانتماء الصحيح الى تجمع المؤمنين ؟

يزعم الكثير انه يتلخص في الممارسات القشرية للدين ، و لانه يصلي و يصوم و يحج يحسب انه من اولياء الله ، و من حزبه المفلحين ، بينما ينبغي لنا ان نرجع الى القرآن الحكيم الذي هو الفرقان و الميزان في كل قضية ، و نتخذ المقاييس من آياته ، و انه ليؤكد في هذا الدرس و في الكثير من الآيات و المواضيع ان اهم و ابرز محتوى و مقياس للايمان و للانتماء الحقيقي للمؤمنين هو التولي الصادق و العملي لحزب المؤمنين و قيادتهم الرسالية ، اما اولئك الذين يدعون الايمان في الظاهر ولكنهم يحتفظون بوشائج حميمة نفسية و سياسية معحزب الشيطان (اعداء الرسالة من الكفار و المشركين و المنافقين) فانهم و ان حلفوا بالايمان المغلظة ، و تكلفوا اظهار صدقالايمان و الانتماء و الولاء ، ليسوا الا من حزب الشيطان ، و سوف يعذبهم الله ، دون ان يستطيعوا التهرب من عذابه بوسيلة ، و لا خداعه بيمين و حلف ، لانه الشاهد على كل شيء و العليم الخبير به ، و هو يعلم بواقعهم الذي ينطوي على الولاء لاعداء الله و الرسالة ،و اعداء المؤمنين و القيادة الرسالية ، بحثا عن العزة و الشرف ، فكيف يكون هؤلاء من المؤمنين الصادقين و هم يحادون الله و رسوله بهذا العمل القذر ، و يتخلفون عن حدوده و احكامه ؟ ام كيف ينالون عزة و ليست الا لله و لرسوله و للمؤمنين ؟ كلا .. انهم ليسوا من المؤمنين ، و لن يصيروا الا الى ذل بعد ذل.

بلى . ان هؤلاء المنافقين المزدوجين الشخصية كانوا يبحثون عن المناصب و الرفعة باعتبارهم الاكثر مالا ، و اتباعا ، و لما في نفوسهم من المرض ، و ليس لانهم الاكفاء ، فراحوا يطلبون العزة ، و يسعون لهذه المطامع من خلال التعاون مع اعداء الامة الاسلامية ، وبيع انفسهم عمالة لهم ، لعلهم ينتصرون جميعا على الرسول ، و يطفؤون شعلة الرسالة ، فتتحقق مطامعهم ، و ينالون اغراضهم المشؤومة ، و قد غاب عن هؤلاء ان الله صاغ الوجود على اساس انتصار الحق ، و كتب ذلك في سننه ، و حتم تنفيذه بقوته ، و اراد لنفسه و لحزبهالعزة ، ولاعدائه الهزيمة و الذل.

و ختاما للسورة و لهذا السياق يحدد الله اهم المواصفات للمؤمنين الحقيقيين ، الذين هم حزبه المفلحون ، و اهمها بعد الايمان بالله و اليوم الآخر التبري من اعداء الله و رسوله و رسالته ، لا يميزون في ذلك بين احد و احد ، انما يعدون من اجل توليهم و انتمائهمكل عدو " و لو كانوا آبائهم و اخوانهم و عشيرتهم " ، مما يدل على تجذر الايمان في قلوبهم ، و اخلاصهم للحق ، و تأييد الله لهم بروح منه ، لانهم اولياؤه بحق و صدق . " اولئك حزب الله " الذين يستحقون تأييده و جناته و رضوانه ، و ذلك هو الفلاح.

بينات من الآيات
سورة الحشر

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الاعمال باسناده عن النبي - صلى الله عليه وآله - قال : " من قرا سورة الحشر لم يبق جنة و لا نار و لا عرش و لا كرسي و لا الحجب و السماوات السبع و الارضون السبع و الهواء و الريح و الطير و الشجر و الجبال و الشمس و القمر و الملائكة الاصلوا عليه و استغفروا له ، و ان مات في يومه او ليله مات شهيدا. "

نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢٧١

قال رسول الله - صلى الله عليه وآله - : " من قرا هذه السورة كان من حزب الله المفلحين "ثواب الاعمال / ص ٢٠٩

الاطار العام

تفتتح السورة بتسبيح الله و بيان عزته التي تجلت في دحر الكافرين ، و تختتم باسماء الله الحسنى ، و فيما بينهما تبين الاخوة الايمانية التي تشد المسلمين الى بعضهم ، بينما الكفار تحسبهم جميعا و قلوبهم شتى..

ففي السورة اذا محور ان يتصلان ببعضهما اتصال الرافد بالينبوع ، و الدوحة بجذورها الضاربة في العمق..

ذلك ان تسبيح الله و تقديسه عن الشركاء ، و الذوبان في بوتقة توحيده ، و الاستظلال تحت راية حمده التي ترفرف باسماءه الحسنى .. كل ذلك اساس التجمع الايمانـي المتسامي عن حواجز المادة ، و جذر لدوحة الصفات المثلى كالتكافل و الايثار ، و ينبوع روافد الحكمةو الجهاد و العزة الالهية.

و هكذا تنساب آيات السورة في الاذان الواعية ، فتطهر القلوب من اضغانها ،و تزرع الحب في ارجائها.

تعالوا نستقبل زخات النور المنبعث من آياتها المباركات:

لان الله قدوس يسبح له ما في السماوات و الارض فهو العزيز الحكيم.

و لانه عزيز فانه قهر الذين كفروا بالرسالة و حاربوها من اهل الكتاب ، و اخرجهم حتى يوم الحشر من ديارهم بالرغم من تجذرهم فيها ، فلم يظنوا بانهم خارجون منها ، كما لم تظنوا ذلك . لماذا ؟ لانهم شاقوا الله حينما كفروا برسالته ، و بما شاقوا الرسول . و من آيات عزة الله انه شديد العقاب بالنسبة الى من يشاق الله.

و يشرع السياق في بيان اصول التكافل الاجتماعي بين المسلمين عبر نقاط متواصلة:

الاولى : ان ما افاءه الله على رسوله من دون حرب فهو لله و للرسول و للمستضعفين من المسلمين.

الثانية : ان الهدف من توزيع الثروة منع تراكمها بين الاغنياء فقط.

الثالثة :الفقراء من المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم ابتغاء رضوان الله و نصروا الله و رسوله اولئك هم الصادقون فهم يستحقون الفيء.

الرابعة : الذين سبقوهم الى دار الايمان و هم الانصار لا يجدون في انفسهم حاجة مما اوتوا ، لانهم يؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ، و لان الله قد وقاهم شح انفسهم ، و من يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون.

و هكذا تتدرج آيات السورة ابتداءا من التكافل الاجتماعي لتبلغ اسممراحل الاخوة الايمانية المتمثلة في الايثار . و يبدو ان هذه البصيرة هي محور السورة كلها.

الخامسة : لكي تبقى مسيرة الاخوة عبر الاجيال فان المؤمنين يستغفرون الله لمن سبقهم بالايمان.

السادسة : ان المؤمنين يدعون ربهم دوما ان ينزع من صدورهم اي غل تجاه اخوتهم المؤمنين.

السابعة :و كما يضرب القرآن لنا مثلا اعلى للاخوة بين ابناء البشر في قصة الانصار)من اهل المدينة) و المهاجرين (من غيرهم) و ما كان بينهم من ايثار و حب ، يسوق أمثولة من واقع المنافقين (من اهل المدينة) و كفار اهل الكتاب)من غيرهم) كيف سادت علاقاتهم الخيانة ، فقد وعدوهم بان ينصروهم ان هوجموا و الله يشهد انهم لكاذبون ، كما يسوق امثولة اخرى من واقع اليهود و كيف انهم يفقدون التمسك بعزة الله فتراهم يرهبون منكم ، كما ان قلوبهم شتى فيما بينهم لانهم قوم لا يعقلون.

و هكذا علاقة الشيطان بمن يتبعه ، يامره بالكفر (و يمنيه بالنصر) و لكنه يخذله ، و يقول : اني اخاف الله رب العالمين ، فيكون عاقبتهما النار خالدين فيها.

الثامنة : و لكي تنمو في الامة روح التقوى التي هي اصل كل خير فان الله يأمرنا بان ننظر ماذا نقدم لدار مقرنا التي ننتقل اليها غدا ، و يأمرنا بذكره ابدا ، لان من ينسى الله ينسيه الله نفسه ، و ان نسعى لنكون من اهل الجنة (التي سبقت الاشارة اليهم ، و كيفيؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة) ، و ان نحذر مصيرا اهل النار فهما لا يستويان مثلا ، اصحاب الجنة هم الفائزون.

و في ختام الآية يتحف ربنا رسوله و المؤمنين ببيان اسمائه الحسنى عبر آيات لو انزلت على جبل لرايته خاشعا متصدعا من خشية الله..

و اذا تفكرنا في هذه الاسماء و وعيناها فان الانصهار في بوتقة التوحيد و الخروج من شح الذات يكون ممكنا باذن الله .

يسلط رسله على من يشاء

هدى من الآيات

هاجر النبي (صلى الله عليه وآله) الى يثرب ، ليتسنى له ان يبنى في جو من الاطمئنان حركته الحضارية ، و يعد المؤمنين للدور التاريخي الهام الذي ينتظرهم . و لكنه وجد مدينته محاطة بمجاميع من الاعداء لا يقلون خطرا عليه و على الرسالة من طغاة قريش ، و هم بنو النضير ، و بنو قريضة ، و بنو قينقاع من قبائل اليهود ، و قد اهمهم الدين الجديد باعتبارهم اصحاب رسالة سابقة ، و اعتبروه خطرا على مصالحهـم و كيانهم ، و ربما يدفعهم العداء مع دين الاسلام الى الدخول في الحرب ضده.

و حيث لا تغيب هذه الحتميات عن الرسول (صلى الله عليه وآله) فقد سعى لإبرام المعاهدة الامنية معهم لتحييدهم ، و ليتوجه الى بناء الامة الجديدة ، و اعدادها لدورها الحضاري.

و لكن اليهود نقضوا العهد عداوة لله و لرسوله ، و حسدا من عند انفسهم ، و كان ذلك ان اتاهم رسول الله يستلفهم دية رجلين قتلهما رجل من اصحابه ، و كان بينهم كعب بن الاشرف ، فلما دخل على كعب قال : مرحبا يا ابا القاسم و اهلا ، و قام كأنه يصنع له الطعام ،و حدث نفسه ان يقتل رسول الله (صلى الله عليه وآله) و يتبع اصحابه ، فنزل جبرئيل فاخبره بذلك ، فرجع رسول الله (صلى الله عليه وآله) الى المدينة (و قيل : انهم قالوا : نعم . يا ابا القاسم ! نعينك على ما احببت ، ثم خلا بعضهـم ببعض ، فقال (كعب بن الاشرف) : انكم لن تجدوا الرجل على مثل حالته هذه ، و رسول الله الى جانب جدار من بيوتهم قاعد ، فقالوا : من رجل يعلو على هذا البيت يلقي عليه صخرة ، و رسول الله في نفر من اصحابه فأتاه الخبر من السماء بما اراد القوم ، فقال و قال لاصحابه : " لا تبرحوا " فخرج راجعا الى المدينة ، و لما استبطأوا النبي (صلى الله عليه وآله) قاموا في طلبه .. حتى انتهوا اليه فاخبرهم الخبر بما ارادت

اليهود من الغدر و أمر رسول الله (صلى الله عليه وأله) محمد بن مسلمة بقتل كعب بن الاشرف (فقتله) واخذ رأسه " (١. (

و عــزم (صلى الله عليه واله) على قتالهم لما وجده فيهم من العداوة و الغدر ، بالذات و قد علم بالطابور الخامس للمنافقين الذي يتصل بهم فقال لمحمد بن مسلمة الانصاري : " اذهب الى بني النضير فاخبرهم : ان الله عز وجل قد اخبرني بما هممتم به من الغدر، فاما ان تخرجوا من بلدنا ، و اما ان تاذنوا بحرب " فقالوا : نخرج من بلادك ، فبعث اليهم عبد الله ابن ابي) راس النفاق) : لا تخرجوا ، و تقيموا ، و تنابذوا محمد الحرب ، فاني انصركم انا و قومي و حلفائي ، فان خرجتم خرجت معكم ، و ان قاتلتم قاتلت معكم(و كان يطمع في غلبتهم على المؤمنين لما فيه من المصلحة المادية له و لاعوانه) فاقاموا و اصلحوا بينهم حصونهم ، و تهيأوا(١) مجمع البيان / ج ٩ /ص ٢٥٧.

للقتال ، و بعثوا الى رسول الله (صلى الله عليه وآله) : انا لا نخرج فأصنع ما انت صانع ، فقام رسول الله ، و كبر و كبر اصحابه و قال لامير المؤمنين (عليه السلام) : تقدم على بني النضير ، فاخذ امير المؤمين الراية و تقدم ، و جاء رسول الله (صلى الله عليهوآله (و احاط بحصنهم (يحاصرهم اقتصاديا و معاشيا و اجتماعيا ليستسلموا ، و لكي لا يتصلوا بقريش فتدعمهم) و غدر بهم عبد الله بن ابى ، و كان رسول الله اذا ظهر بمقدم بيوتهم حصنوا ما يليهم ، و ضربوا ما يليه (حتى لا ينتفع به في شيء) و كان الرجل منهم ممنكان له بيت حسن خربه (كما تفعل الكثير من الجيوش حينما تنسحب من اي مدينة او منطقة) و قد كان رسول الله امر بقطع نخلهم (حتى لا يستفيدوا منها في اكل و لا تحصن) فجزعوا من ذلك و قالوا : يا محمد ! ان الله يأمرك بالفساد ؟ ان كان لك هذه فخذه ، و ان كان لنافلا تقطعه ، فلما كان بعد ذلك قالوا : يا محمد ! نخرج من بلادك فاعطنا مالنا ،)مما دل على ضعفهم و تنازلهم عن موقفهم السابق) فقال : " لا و لكن تخرجون و لكم ما حملت الابل " فلم يقبلوا ذلك ، فبقوا اياما ، ثم قالوا) و قد ضعفوا و تنازلوا اكثر): نخرج و لنا ما حملت الابل ، فقال : " لا و لكن تخرجون و لا يحمل احد منكم شيئا ، فمن وجدنا معه شيئا في ذلك قتلناه) " و كان هذا الموقف الحازم و المتصلب من القيادة الرسالية يؤكد في نفوسهم الضعف و قوة المسلمين) فخرجوا على ذلك ، و دفع منهم قومالى فدك ، و وادي القرى ، و خرج قوم منهم الى الشام " (١. (

و تحققت للرسول بذلك ثلاثة اهداف : قضاؤه على عدو خطير اولا ، و قطع دابر المنافقين المعتمدين عليهم و آمالهم ، و اضعاف جهتهم ثانيا ، و كسب الهيبة بين الاعداء المتبقين كقريش ثالثا ، و في البعد الاستراتيجي طهر شبه الجزيرة من الوجود اليهودي.

(1)تفسير القمي / ج ٢ / ص ٣٥٩.

بينات من الآيات
و يؤثرون على انفسهم
هدى على الآيات

يركز السياق في هذا الدرس على بحث العلاقة الداخلية في جبهة المؤمنين من جهة ، و في جبهة اعداء الله و اعدائهم من جهة ثانية ، ففي البداية ينطلق من خلفيات قسمة الفيء الذي صار نصيبا للمهاجرين بحكم النبي ، و بإيثار الانصار انفسهم ، فيمتدح حب هؤلاء لبعضهمو طهارة قلوبهم ، و ايثارهم على انفسهم مما يؤكد خروجهم من زنزانة النفس ، كما يسجل موقف المهاجرين الايجابي من الانصار ، و مدى تحررهم من اي اصر او عقدة ، و يضع ذلك نموذجا ساميا للعلاقة التي ينبغي ان تحكم التجمعات و المجتمعات الايمانية افرادها و جماعاتها، و شعوبها و اجيالها ، فان الهيبة و الانتصار ، و التقدم ، و الفلاح يرتكز على الذوبان في بوتقة الايمان و التسليم للقيادة الرسالية ، و بتعبير القرآن : " الوقاية من شح النفس ، و اتباع بصائر الوحي " ، بعيدا عن كل هوى و مصلحة.

ثم يضع القرآن صورة ثانية عن طبيعة العلاقة الداخلية في جبهة الباطل ، و يؤكد لنا بانها قد تتراءى للمراقب الخارجي بانها جبهة متماسكة الا انها تفتقر لاهم عوامل الوحدة و التماسك و هي وحدة

القلوب ، و السبب هو اتباعهم الباطل و الاهواء و المصالح ، و نبذهمالحق المتمثل في الرسالة و هدى العقل ، و كل ذلك فان الانسان لا يجد دوافع حقيقية للتضحية و التفاني من اجله ، و لهذا فان جبهة الباطل تضعف و تتمزق بمجرد تعرضها للتحديات الحقيقية ، و قد راينا كيف استسلم بنو النضير من دون قتال ، و كيف تنصل المنافقون عن نصرتهم رغم العود و الايمان و المغلظة بينهما ، و هكذا هي العلاقة بين اهل الباطل (افرادا و جماعات و دولا) يتناصرون مادامت ثمة مصلحة مشتركة ، اما اذا انعدمت او وجدت في مكان و موقف اخر فانهم يميلون حيثما تميل ، و هي بالضبط تشبه العلاقة بين الشيطان و بين ادم ، حميمة مادامت للشيطان مصلحة فيه ، اما اذا آن عذاب الله فكأنه لا يعرفه " فلما كفر قال اني بريء منك اني اخاف الله رب العالمين. "

بينات من الآيات
له الاسماء الحسنى
هدى من الايات

هكذا بصرتنا الآيات السابقة بالصفات الرفيعة التي يتحلى بها المؤمنون الصادقون ، و التي هي ركيزة فلاحهم ، كما حدثتنا عن العلاقة السيئة بين المنافقين و بين حلفائهم من اعداء الامة ، و في ختام الفصل فضحت دورهم في تضليل الناس ، و انهم كالشيطان الغوي ، الذي يقود اتباعه الى النار ثم يتبرا منهم.

و حيث ان اشراك ابليس منصوبة لكل انسان و حتى المؤمنين فلا بد من التحصن عنه بالتقوى ، كما ان المنافقين الذين يمثلون دور الشيطان في الامة الاسلامية سيعملون على تجريد المؤمنين من صفة الايثار ، و تفريقهم ، ثم جر بعضهم الى حزبهم ، لذلك يدعو الوحي في هذاالدرس الى تقوى الله ، و التفكير في مستقبل الاخرة ، و الاحساس بهيمنة الله عبر ذكره الدائم مما يحفظ الانسان عن الانحراف ، و يحصنه ضد الشيطان.

و تشير الآيات باختصار الى الفرق الكبير بين اهل الجنة و اصحاب النار ، ثم يثني السياق على عظمة القرآن و فاعليته في التأثير باعتباره النهج الذي يربط المخلوق بربه و يذكره به ، فهو لو انزل على جبل لخضع و تصدع من خشية ربه ، و لك ان تعلم كم ينبغي ان يكون قلبالانسان قاسيا اذا لم يتأثر بآياته الحكيمة . و لكن هذا الكنز الالهي العظيم لا يكتشفه الانسان الا اذا استثار عقله للتفكر في آياته ، و التدبر في امثاله و قصصه.

و يكتسب القرآن عظمته الكبرى من كونه كلام الخالق ، و التجلي الاعظم له الى خلقه ، و هذه الحقيقة هي التي تكشف لنا العلاقة بين الكلام عن عظمة القرآن في الآية (٢١) و الحديث عن صفات الله في الآيات (٢٢ / ٢٤) ، فان عظمة القرآن من عظمة خالقه المتجلية فياسمائه و صفاته . و لن تتحقق خشية الله لاحد الا اذا سمى الى افاق المعرفة به سبحانه ، و ذلك بالتعرف على اسمائه الحسنى التي تتجلى في كتابه و في خلقه ، و لذلك يختتم الله سورة الحشر بذكر مجموعة منها لكي يتعرف الينا و نعرفه كما يريد.

بينات من الآيات
سورة الممتحنة

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الاعمال باسناده عن علي بن الحسين (عليهما السلام) قال : " من قرا سورة الممتحنة في فرضه و نوافله امتحن الله قلبه للايمان ، و نور له بصره ، و لا يصيبه فقر ابدا و لا جنون في بدنه و لا في ولده. "

نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢٩٩

الاطار العام

الصورة المثلى التي تبشر بها رسالات الله لحضارة الانسان في المستقبل ، هي صورة ذلك المجتمع المبدئي الذي يتعالى عن مؤثرات المادة السلبية ، ليسموا الى افق القيم الربانية ، انئذ تنصهر كل القوى في بوتقة الوحي ، بعيدا عن عصبية الاقليم و القوم ، و حزازات الطائفة و الطبقة و الحزب.

و لكي تسعى البشرية نحو تحقيق هذه الصورة المثلى فان الوحي يصنع نموذجا بشريا رائعا ممن يسميهم بحزب الله او الامة الشاهدة و الصفوة الخالصة .. لكي تكون سيرتهم قدوة لغيرهم ، و لكي يكونوا كما الدرع الواقية تحيط بالامة و تمنعها عن التمزق و التشرذم.

ارايت كيف جعل الله الجبال اوتادا للارض تحميها من القواصف و العواصف و الهزات و الزلازل ، كذلك حزب الله المنتشرين في اوساط الامة يمنعونهم من التقاتل تحت ضغوط المصالح و الاهواء ، و عن الاختلاف و التمزق.

و يبدو ان سورة الممتحنة تربي في الامة تجمع حزب الله ثم الامثل فالامثل ممن يتبع نهجم و يقتدي بسيرتهم ، و هكذا الخطاب يتوجه في فاتحتها الى المؤمنين لكي يبتعدوا عن مودة الكفارة المعادين للرسول و لكم لانكم قد تفرغتم للجهاد في سبيل الله ، و لانكم تبحثونعن مرضاته ، و لان الله يعلم سركم و نجواكم ، و لان هذه المودة ضلال عن الصراط السوي ، و لانهم قد يتظاهرون اليوم بالمودة و لكنهم ان ياخذوكـم يشبـعونكم اذى بالسنتهم و ايديهم ، و اخير : لانهم لا يزيدونكم عند الله خبالا ، هنالك اذ يتميز المؤمنون عن الكافرين.

و لمزيد من التحريض على الكفار المعادين يرغب الرب المؤمنين بالتأسي بابراهيم - عليه السلام - و المؤمنين في عهده الذي تبرأوا من قومهم الكافرين ، و نابذوهم العداء ، و توكلوا على الله.

ان هذا الموقف الصلب قد يجعله الله سبحانه سببا لانتصار المسلمين على الكفار او لتحييدهم لا اقل مما يسمح للمؤمنين يومئذ بمودة من يشاؤون منهم لان الله لا ينهـى عن المــبرة الى غير الاعداء من الكفار و القسط اليهم لان الله يحب المقسطين.

و ينعطف السياق الى الحديث عن المهاجرات ، ربما لان المعروف التحاق المرأة بالرجل بينما صلة الدين اقرب من علاقة الزوجية ، و هكذا كانت المرأة تترك زوجها للالتحاق بأبناء دينها ، و لكن يأمر القرآن امتحانها ، فاذا عرف منها الايمان انفصلت عن زوجها ، و منجهة ثانية اذا امن الرجل لم يجز له الابقاء على زوجته الكافرة.

و بعد بيان جملة احكام تخص هذه المفارقة يبين القرآن بنود بيعة النساء ، و ابرزها نبذ الشرك (و الذي يعني نبذ كل حاكمية مخالفة لحاكمية الله) ، و الامانة في المال و العرض ، و المحافظة على الاولاد ، و التورع عن اتهام احد (فيما يتصل ظاهرابالامانة في النسب) ، و الطاعة للقيادة.

و في خاتمة السورة يذكرنا الرب بضرورة الطاعة للقيادة الرشيدة ، و ينهى عن اتباع القيادات الضالة.

لا تتخذوا عدوي و عدوكم اولياء

هدى من الآيات

لكي تتكامل نفس المؤمن ، و تصفو من شوائب الشرك و الشك ، و تتعالى عن المؤثرات المادية ، و بالتالي لكي تتهيأ للقاء الله و نيل جناته و رضوانه ، فان عليه ان يجتاز بنجاح امتحان الولاء ، و تتمحض علاقاته في الايمان ، و قد يدعوه ذلك الى قطع و شائج الولاء عناقرب ارحامه فيقاوم تيار عواطفه الجياشة تجاههم ، و يتحمل مضاعفات العزلة عنهم و ضغوط الحياة دونهم.

و ذلك من اصعب ما يتعرض له الانسان ، و لكن القرآن يعالج ذلك علاجا موضوعيا من شأنه تهوين الامر في نفوس المؤمنين ، و دفعهم لخوض الامتحان بنجاح ، ببيان الحقائق التالية:

اولا : ان الكفار لا يوادون المؤمنين ابدا ، بل يكنون ضدهم الحق و العداء ، و اذا كانوا يتظاهرون بالمودة

احيانا فانما لاسباب و ظروف و مصالح ، فحيث لا يجدونالقدرة على اظهار العداء للمؤمنين الذين قويت شوكتهم يخفون كل ذلك ، اما لو يظفرون بهم فانهم ، "لا يرقبون في مؤمن الا و لا ذمة و اولئك هم المعتدون " (١) ، و دليل ذلك انهم اخرجوا من قبل الرسول (ص) و المؤمنين من مكة المكرمة ، و استحلوا حرماتهم و اموالهم.

ثانيا : المهـم عنـد المؤمن الاخرة فعليه ان يعمل في الدنيا ما ينفعه يوم القيامة ، و ليس تنفعه تلك الولاءات شيئا ، فلماذا التشبث بها ؟

ثالثا : ان المقاطعة التي يفرضها الله على المؤمنين ليست امرا مستحيلا ، فهناك من عمل بها و هو نبي الله ابراهيم (ع (و المؤمنون معه ، حيث ضربوا المثل الاعلى في البراءة من قومهم المشركين و من الهتهم المزيفة ، و في الكفر بهم ، و اظهار العداوة و البغضاءضدهم ، و ما اروعها اسوة لكل مؤمن يرجو رضى ربه ، و يؤمن بالحياة الاخرى.

بينات من الايات

لا تتولوا قوما غضب الله عليهم

هدى من الآيات

في هذا الدرس ترسم الآيات الكريمة المنهج السليم للعلاقة بين المؤمنين و الكفـار ، و انما قــدم الله التأكــيد على ضــرورة المقاطعة ، و التأسي بخليله ابرايهم (عليه السلام) لانها الاصل ، و هنا ينثني السياق لعلاج الموضوع في بعض تشعباته الاخرى.

فبعد ان يؤمل المؤمنين الذين صمدوا امام الرغبة الجامحة في تولي الكفار او مودتهم ، و صبروا على الضغوط المتواصلة من قبلهم ، يؤملهم بالعاقبة الحسنى ، المتمثلة في تحطيم عناد الكفار على صخرة الصمود فينهزمون ، و هنالك يسمح لهم باقامة العلاقات الاعتيادية، ثم ينهى عن اي لون من الولاء للمحاربين منهم ، سواءا الذين يحاربون مباشرة ، او الآخرين الذين يعينون على محاربة الحق و اهله ، و يعد من يتولاهم ظالما . و في الآيتين (الثامنة و التاسعة) دلالة و اضحة حتى علىحرمة البر و الاقساط لهم . و الى جانب هذا التفريق بين الصنفين) المحاربين و المسالمــين) هناك موقف واحد من قبل الاسلام تجاههما في الحقل الاجتماعي و الاسري ، و بالتحديد في موضوع هجرة المؤمنات الى الاسلام و المجتمع المؤمن ، فانه لا يعتبر ولاية الزوج عقبة في قبول هجرتهن اذا تبين منهن الصدق ، بل و يحرم على المؤمنين ارجاعهن لازواجهن الكفرة ، و هذا لون من الحماية التشريعية و الاجتماعية ، فانه ليست للكافر الولاية على المؤمنة ، كما لا يجوز للمؤمن ان يتزوج الكفارة بالاصل او بالردة ، و يبيح الدين الزواج منالكافرات اذا آمن لان الاسلام يجب ما قبله .

و لكن لا تضيع في هذا المجال الحقوق المالية ، انما يحفظها الاسلام حتى للكفار حيث يقرر لكل ما انفق . للكافر الذي اسلمت زوجته ، و للمؤمن الذي كفرت زوجته ، و ذلك شاهد عدل الله و حكمته.

بينات من الآيات

] [7]عسى الله ان يجعل بينكم و بين الذين عاديتم منهم موده[

اي تتحول العلاقة بين الفريقين من العداء الى المودة ، اما بدخول اولئك الاسلام ، او بتحولهم من حالة المحاربة الى حالة السلم ، فالاسلام اذن لا يحارب الكفار كعنصر انما يحاربهم لموقفهم السلبي من الحق و اهله ، و نهتدي من الآية الكريمة الى فكرتين:

الاولى : ان السلام الذي ينشده الاسلام هو السلام المدعوم بالقوة و العزة ، لذلك يدعو اتباعه لمقاطعة العدو و تحديه حتى يسلموا او يستسلموا ، ذلك لان الخضوع له ليس سبيلا الى الاسلام الحقيقي الدائم ، و انما المقاطعة التي تكشف عن العزةالاسلامية وسيلة لفرض الاسلام.

الثانية : اما كيف يتحول عداء الكفار الى مودة للمؤمنين ، فان الانسان حينما ينبهر بقوة قاهرة يتحسس بالود تجاهها ، حتى لقد ثبت في علم النفس الاجتماعي ان الشعوب المغلوبة تود القوى القاهرة ، و تقلدها في الافكار و السلوكيات في الغالب ، و حيث كانت القوة في بادىء الامر للكافر كان يخشى ان

يميل المؤمنون اليهم بالمودة ميلا ، و بالذات لان فيهم الارحام و الاقارب ، اما اذا تحول ميزان القوى لصالح المسلمين بالغلبة و القوة فان المودة ترتجى ان تكون من قبل الكفار لهم ، و لعل التعبير بـ " منهم " يشير الى ذلك.

و " عسى " هنا تفيد الرجاء القريب ، مما يحيي روح الامل بالله في النفوس المؤمنة ، و يلاحظ ان القرآن يعبر بعسى و لعل في مواضع كثيرة ، دون ان يقطع و يحتم ، مع ان كثيرا من الامور هي واقعة في علم الله ، و ذلك يهدينا الى ان الطبيعة ليست جامدة ،و انما تخضع لأمرين : المشيئة الالهية ، و ارادة الانسان ، و لم يحتم ربنا نصر المؤمنين ، و تحول ميزان القوى لصالحهم في المستقبل حتى لا يتواكلوا ، او ينتظروا الارادة الالهية تغير الامور بوحدها.

]و الله قدير[

على صنع ذلك فيستسلم المشركون لاوليائه او يهديهم الى الاسلام ، فتعود المودة بين الفريقين.

]و الله غفور رحيم[

و من غريب ما قاله المفسرون في هذه الآية هو تأويلهم لها في ابي سفيان ، بانه من المعنيين بقوله تعالى : " عسى الله ان يجعل بينكم " ، مع ان الآيات نزلت قبلفتح مكة ، قبل ان ينطق ابو سفيان بالشهادتين فكيف اصبح مصداقا للآية ؟!

[8]و يحدد لنا القرآن الموقف المطلوب تجاه المسالمين من الكفار - الذين لا يحاربوننا و لا يؤذوننا - حيث يبيح التعامل معهم انسانيا على اساس البر و القسط ، فيقول:

]لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين و لم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم و تقسطوا اليهم]لانهم مسالمون ، و يجمع المسلمين معهم اطار الانسانية ، و هذا يعني ان الاسلام دين السلام ، فهو لا ينشد الحروب و العداوات بذاته ، انما دعوته للتبري و المقاتلة تكون موجهة ضد الكفار المحاربين ، و قائمة على اساس موقفهم السلبي ضد الدين و اتباعه.

و البر عموم الاحسان ، و منه التواصل ، و تبادل الاحترام ، و مقابلة الاحسان بمثله ، اما القسط فقد قيل : هو اقتطاع بعض المال و اعطائه لهم قرضا او غيره . و الاظهر انه العدالة الظاهرية و الباطنة التي هي اسمى درجات العدل (١) و هذا الحكم الالهي يبين كيف ان مجرد الكفر و اعتناق المبادىء المغايرة للدين ليس وحده مبررا لاستباحة حرمة الانسان ماله و عرضه و نفسه ، و في نهاية الآية يحث ربنا على الاقساط اذ يقول:

]ان الله يحب المقسطين[

و يريد للمؤمنين به ان يكونوا كذلك ، و لعل قوله " يحب المقسطين " تخصيص للقسط بالذات على وجه الترجيح له على البر . و حيث يبيح ربنا هذا اللون من(١) مر كلام مفصل حول العلاقة بين العدل و القسط في سورة الحجرات.

العلاقة مع الكفار المسالمين فانه لا يفرض قيدا محددا على المؤمنين ، و ذلك يعني انهم (قيادة ، و مجتمعا) هم الذين يشخصون الموقف ، و طبيعة العلاقة المطلوبة حسب متغيرات الواقع . و قد جاء في الاثر : ان اسماء بنت ابي بكر سألت النبي (صلى الله عليه وآله: (
هل تصل امها حين قدمت عليها مشركة ؟ قال : " نعم " (١)[٩] و يعود السياق ليؤكد الامر بالمقاطعة و ينهى عن التولي:

]انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين و اخرجوكم من دياركم و ظاهروا على اخراجكم]بالتحالف مع الاعداء المحاربين ، او اعانتهم بأية صورة و وسيلة ، فانه محرم عليكم ان تتولوهم او تبروهم ، و من يتولهم يشاركهم في كل ظلم يصل الى المؤمنين من قبلهم ، و يناله العذاب من عند الله ، و يجب على

المؤمنين في الدنيا احتسابه من الجبهة المعادية ، والوقوف منه كموقفهم من الظالمين انفسهم.

]ان تولوهم و من يتولهم فاولئك هم الظالمون[

و بالمقارنة بين الآيتين (الثامنة و التاسعة) نتوصل الى التالي:

- 1ان اباحة البر و القسط تجاه غير المحاربين من الكفار ، و عدم تعرض الآية لذكر التولي لا يعني انه سائغ ، كلا .. انما يعني بان حد الاباحة هو البر و القسط دون التولي.

- 2ان مجرد البر و الاقساط للكفار المحاربين محرم على المؤمنين ، و لكن لماذا ؟

(1)القرطبي / ج ١٨ / ص ٥٩.

اولا :لان القسط ليس ضروريا مع المحاربين ، لان دمهم و مالهم حلال . اوليس يستحلون ذلك منا ؟ و ثانيا : ان القسط هنا ليس بمعنى العدالة انما هو فوقها ، و هو في الحقوق يشبه الايثار في الاخلاق ، و لذلك كان حكمه الاباحة " لا ينهى " حتى مع المسالمين، بينما العدالة فهي واجبة تجاههم) اي غير المحاربين) و مثل هذا التعامل غير مناسب مع المحاربين ، حتى ولو كانت العدالة واجبة تجاههم في بعض الجوانب.

[10]و يمضي بنا السياق شوطا آخر في الحديث عن ضرورة التمحض في العلاقات الايمانية فيبين ان الصلات الزوجية لا ينبغي ان تكون حاجزا دون الولاء الايماني ، لانه اسمى من كل علاقة ، و هو يفصل بين المؤمنة و زوجها الكافر ، كما يفصل بين المؤمن و زوجته الكافرة، بالرغم من ان اكثر الناس يزعمون ان الزوجة تابعة لزوجها في كل شيء حتى في دينها و ولائها ، بينما يؤكد القرآن استقلالها في القضايا المتصلة بمصيرها ، فلا يحق لها ان تبقى رهينة ارادة الزوج الكافر لو اختارت الاسلام عن وعي و قناعة ، و لا يجوز للمؤمنين انيرفضوها او يرجعوها الى زوجها فانها حرام عليه ، اذ لا ولاية لكافر على مؤمن و لا على مؤمنة.

]يا ايها الذين امنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن]بهدف معرفة صدق نواياهم و خلوصها عن اي هدف مادي ، كأن تكون الواحدة قد هاجرت هربا من العصمة الزوجية او طمعا في مؤمن ، و تأتي أهمية الامتحان من ان المجتمع المؤمن ينبغي ان ينتقي افراده انتقاء ، و بالذات عندما يواجه التجمع الايماني محاولات التسلل و الاختراق من قبل اعداء الدين ، اما كيفية الامتحان فان القران لا يحددها ، بل يترك الامر للمؤمنين انفسهم يجتهدون علىاساس معطيات الظروف ، و لكن يجب ان لا يدفعهم ذلك الى الظن السيء ، او التمنع من قبول انتماء الآخرين الى صف المجتمع المؤمن بحجة الخوف من الاختراق مما يسبب في حالة الانطواء و الانغلاء ، فان الشخصية الواقعية للناس لا يعلمها الا الله.

]الله اعلم بايمانهن[

فانهن اذا خدعن المؤمنين فلن يخدعن الله ، و هكذا يجب ان يأخذن الامتحان الالهي بعين الاعتبار ، و ربما ظن الواحدة منهن انها قادرة على اللعب على المؤمنين فهل تفلت من عدالة الله ايضا ؟ كلا .. و انما يجب على المؤمنين الاجتهاد و الحكم على اساس المعطيات العلمية الممكنة.

اما عن كيفية امتحان الرسول لهن فقد جاء في مجمع البيان : قال ابن عباس : صالح رسول الله (ص) بالحديبية مشركي مكة على ان من اتاه من اهل مكة رده عليهم ، و من اتى اهل مكة من اصحاب رسول الله (ص) فهو لهم و لم يردون عليهم ، و كتبوا بذلك كتابا و ختموا عليه ، فجاءت سبيعة بنت الحاري الاسلمية مسلمة بعد الفراغ من الكتاب ، و النبي (ص) بالحديبية ، فجاء زوجها مسافر من بني مخزوم ، و قال قاتل : هو صيفي بن الواهب في طلبها و كان كافرا ، فقال :يا محمد اردد علي امرأتي فانك شرطت لنا ان ترد علينا من اتاك منا ، وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد ، فنزلت : " يا ايها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات من دار الكفر الى دار الاسلام فامتحنوهن " ، قال ابن عباس : امتحانهن ان

يستحلفن ماخرجت من بغض زوج ، و لا رغبة عن ارض الى ارض ، و لا التماس دنيا انما خرجت حبا لله و لرسوله فاستحلفها رسول الله (ص (ما خرجت بغضا لزوجها و لا عشقا لرجل منا ، و ما خرجت الا رغبة في الاسلام ، فحلفت بالله الذي لا اله الا هو على ذلك ، فأعطىرسول الله (ص) زوجها مهرها و ما انفق عليها و لم يردها عليه ، فتزوجها عمر بن الخطاب ، و كان رسول الله (ص) يرد من جاء من الرجال و يحبس من جاء من النساء اذا امتحن و يعطى ازواجهن مهورهن . قال الجبائي : لم يدخل في شرط صلح الحديبية الا رد الرجال دون النساء و لم يجر للنساء ذكر ، و ان أم كلثوم بنت عتبة بن ابي معيط جاءت مسلمة مهاجرة من مكة فجاء اخواها الى المدينة و سألا رسول الله (ص) ردها عليهما ، فقال (ص) : ان الشرط بيننا في الرجال لا في النساء ، فلم يردها عليهما ، قال الجبائي : و انما لم يجر هذاالشرط في النساء لان المرأة اذا اسلمت لم تحل لزوجها الكافر ، فكيف ترد عليه و قد وقعت الفرقة بينهما ؟ (١ (.

]فان علمتموهن مؤمنات[

بعد الامتحان فحينئذ لا يجوز ردهن لانه لا مبرر لذلك ، و لان المجتمع المؤمن ليس حكرا على احد دون احد.

]فلا ترجعوهن الى الكفار لا هن حل لهم و لا هن يحلون لهن]و السؤال : لماذا ذكر الحرمة من الطرفين مع ان نفيها من جهة يفيد نفيها من الجهة الثانية ؟

و الجواب : لعل الحلية هنا بمعناها الاول وهو الانسجام الذي يعتبر هدفا و شرطا اساسيا في الزواج ، و مراد الآية الكريمة تأكيد انعدامه ليس من طرف واحد بحيث يمكن علاجه و الصبر عليه ، بل من الطرفين معا مما لا يمكن علاجه ابدا.

و حيــث تبين المؤمنة من زوجها الكافر يتحمل المؤمنون اعطاءه ما انفق عليها ،(١) نور الثقلين / ج ٥ / ص ٣٠٤ - ٣٠٥.

لان المهر ليس موضوعا للوطأ الاول بل للعلاقة المستمرة الدائمة ، و حيث خسرها بغير ارادته يجب ان يعوض ، و لعل التعويض منصرف للكافر غير المحارب ، او في حال الهدنة ، و هذا من صميم العدالة في الاسلام . و في ايتاء الكفار ما انفقوا قيمة معنوية هي ان لا تبقىلكافر يد على مؤمن او مؤمنة.

و تعويض الزوج الكافر يتحمله بيت مال المسلمين ، و لذلك جاء الخطاب موجها للمؤمنين عامة ، و هو يحلل المرأة المؤمنة من زوجها الكافر فقط ، و ليس يجعلها حلا للمؤمنين الا اذا اعطوا لها المهر.

]و لا جناح عليكم ان تنكحوهن اذاء اتيتموهن اجورهن]و كما تحرم المؤمنة على الكافر كذلك تحرم الكافرة على المؤمن ، سواءا بالاصالة او بالردة لما في ذلك من اثار سلبيه على حياة المؤمن و تربية الاولاد ... الخ.

]و لا تمسكوا بعصم الكوافر[

و الفقهاء استفادوا من هذه الآية حكما قاطعا بحرمة الزواج من الكافرة ، او الاستمرار في الزواج عند اسلام الزوج دون زوجته . و قد طلق المسلمون زوجاتهم المشركات بعد نزول الآية ، و جاء في التاريخ ان عمر بن الخطاب طلق بعد نزول الآية أمرأتين له كانتا في مكةمشركتين ، احديهما قريبة بنت ابي امية ، فتزوجها معاوية بن ابي سفيان و هما على شركهما بمكة ، و ام كلثوم بنت عمر الخزاعية (١) ، و هكذا تنفصم العصمة التي كانت بينهما ، لان عصمة الاسلام من عصمة النكاح.

(1)القرطبي / ج ١٨ / ص ٦٥.

و السؤال : هل الآية تشمل اهل الكتاب فتكون ناسخة للآية التي نزلت في سورة المائدة ، و هي قوله سبحانه " اليوم احل لكم الطيبات و طعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم و طعامكم حل لهم و المحصنات من المؤمنات و المحصنات من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم "(١) . ؟

قال بعضهم : بلى ، و استدلوا ببعض الاحاديث المأثورة عن ائمة اهل البيت (عليهم السلام) ، و ابرزها الحديث الموثق التالي المأثور عن ابن الجهم قال : قال لي ابو الحسن الرضا)عليه السلام) : يا ابا محمد ما تقول في رجل يتزوج نصرانية على مسلمة ؟ قلت : جعلت فداك و ما قولي بين يديك ؟ قال : لتقولن فان ذلك تعلم به قولي ، قلت : لا يجوز تزويج نصرانية على مسلمة و لا على غير مسلمة ، قال : و لم ؟ قلت : لقول الله عز وجل : " و لا تنكحوا المشركات .. الخ " ، قال : فما تقول في هذه الاية : " و المحصنات من الذين اوتوا الكتاب " ؟ قلت : قوله " : و لا تنكحوا المشركات " نسخت هذه الآية ، فتبسم ثم سكت .. (٢)و هناك روايات اخرى مشابهة ، و في كثير منها الاشارة الى ان اية الممتحنة قد نسخت آية المائدة ، مما جعل العلامة الشيخ حسن النجفي - صاحب موسوعة الجواهر - يجد مأخذا عليها بقوله : ان التحقيق الجواز مطلقا (اي جواز نكاح اهل الكتاب بصفة مطلقة) وفاقا للحسنو الصدوقين على كراهية متفاوته في الشدة و الضعف . و اضاف : كما أومأت الى ذلك كله النصوص التي ستسمعها : لقوله تعالى : " و المحصنات .. الى آخرها " التي هي من سورة المائدة المشهورة) في) انها محكمة لا نسخ فيها..

و ساق طائفة من النصوص التي تدل على ان هذه السورة هي اخر سورة نزلتو هي محكمة لا نسخ فيها ، منها حديث مأثور عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) انه قال : " ان سورة المائدة اخر القرآن نزولا فاحلوا حلالها و حرموا حرامها " (١. (

ثم ساق طائفة كبيرة من النصوص عن ائمة اهل البيت (عليهم السلام) و استدل بها على ان نكاح اهل الكتاب جائز و لكنه يصبح مرغوبا عنه و مكروها في حالات معينة ، مثل صحيح ابن وهب المروي في الكافي و الغنية عن الامام الصادق (عليه السلام) في الرجل المؤمن يتزوج النصرانية و اليهودية ، قال :اذا اصاب المسلمة فما يصنع باليهودية و النصرانية ؟ فقلت : يكون له فيها الهوى ؟ فقال : ان فعل فليمنعها من شرب الخمر ، و أكل لحم الخنزير ، و اعلم ان عليه في دينه في تزويجه اياها غضاضة " (٢ (.

و يبدو من هذه الرواية تأويل سائر الروايات على الكراهية ، لا الحرمة.

و كما يلزم الاسلام المؤمنين بإيتاء الكفار ما انفقوا على زوجاتهم اللائي امن فانه يعطي للمؤمنين الحق في المطالبة بما انفقوا على زوجاتهم اللواتي يكفرن.

]و سئلوا ما انفقتم و ليسئلوا ما انفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم و الله عليم حكيم]و ما دام ذلك حكم الله و ليس حكم احد من البشر فهو يجب التقيد به تقيدا توقيفيا ، فكيف و قد وضعه الله العليم الحكيم و رب العالمين ، و لا ينبغي ان يدفعكم بغضكم للمشركين و عداؤكم المبدئي الى تجاوز حقوقهم العادلة.

] [11]و ان فاتكم شيء من ازواجكم الى الكفار فعاقبتم فئاتوا الذين(١) المصدر / ص ٣٠ نقلا عن كتب الحديث و منها الدر المنثور / ج ٢ / ص ٢٥٢.

(2)المصدر / ص ٣٦.

ذهبت ازواجهم مثل ما انفقوا[

و لهذه الآية تفسيرات ثلاث:

الاول :اذا تركت زوجاتكم دار الاسلام الى دار الكفر ، و اعقبتم الكفار بغزوة بعد اخرى حتى هزمتموهم و غنمتم منهم الغنائم ، فاعطوا الذين تركتهم زوجاتهم من الغنائم ، و هذا ما ذهب اليه اغلب المفسرين.

الثاني : اذا " فاتكم " اي لم يعطكم الكفار ما انفقتم على زوجاتكم اللاتي كفرن ، فخسرتم ذلك ، و عاملتموهم كما عاملوكم عقابا لهم فلم تسلموا ما أنفقوا على زوجاتهم اللاتي هاجرن وأمن ، فليس ذلك مسقطا للمسؤولية تجاه الذين فاتت زوجاتهم ، بل يجب عليكم ان تعطوهم ما انفقوا عليهن من مال المسلمين.

الثالث :ان معنى التعاقب " فعاقبتم " اراد الذي فاتت زوجته النكاح مجددا ، و في ذلك جاء الحديث المأثور عن الامام الباقر و الامام الصادق (عليهما السلام (فيما رواه يونس عن اصحابه ، قال : قلت : رجل لحقت امرأته بالكفار و قد قال الله عز وجل فيكتاب : " و ان فاتكم شيء من ازواجكم الى الكفار فعاقبتم فاتوا الذين ذهبت ازواجهم مثل ما انفقوا " ما معنى العقوبة ها هنا ؟ قال : ان الذي ذهبت امرأته فعاقب على امرأة اخرى غيرها يعني تزويجها ، فاذا هو تزوج امرأة اخرى غيرها فعلى الامام ان يعطيه مهر مرأته الذاهبة ، فسألته : فكيف صار المؤمنون يردون على زوجها المهر بغير فعل منهم في ذهابها ، و على المؤمنين ان يردوا على زوجها ما انفق عليها مما يصيب المؤمنين ؟ قال " : يرد الامام عليه اصابوا او لم يصيبوا ، لان على الامام ان يجبر حاجة من تحت يده " (١. (

(1)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٣٠٦.

و سواءا كان معنى (عاقبتم) حصلتم على الغنيمة عبر تعاقب الحرب مع الكفار ، او التقاصي من الكفار و عدم اعطائهم المهر ، عقابا لهم لانهم لم يدفعوا المهر ، او ارادة الزواج المجدد (زواجه الاول) ، اقول : سواءا كان المعنى واحدا من الثلاث فان الذي فاتته زوجته الى الكفار يحصل على مهره من بيت المال ، و قد نقل المفسرون ان النبي دفع لستة من المسلمين مهر ازواجهن اللائي فاتن الى الكفار (١. (

]و اتقوا الله الذي انتم به مؤمنون[

من ان يدعي احد بانه انفق على زوجته اكثر مما انفق بالفعل لكي يستغل هذا القانون استغلالا سلبيا ، او ان يستهين النظام الاسلامي بحقوق هذا الفريق فلا يؤتيهم ما انفقوا ، كما يأتي التأكيد على التقوى باعتباره المرتكز في التكافل الاجتماعي ، فكلما كانت التقوى عميقة كلما اصبح التكافل اكثر و اعمق.

[12]و في سياق حديث السورة عن الولاء و عن ان الولاء المبدئي اعظم من الولاء للزوج او الارحام يبين السياق استقلالية المرأة في مبايعتها و اختيارها للقيادة ، فهي ليس كما يتصور بعض الرجال او كما تظن بعض النساء تابعة للرجل في كل شيء ، كلا .. انها يحقلها بل يجب عليها ان تختار قيادتها بنفسها ، و ان تظهر الولاء و تنشىء عقد الطاعة بينها و بين قيادتها ، و هنا تشير الآية الى اهم مفردات عقد البيعة مع القيادة الرسالية من قبل المرأة ، و الواجب التزامها بها.

]يا ايها النبي اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ان لا يشركن بالله شيئا](١) راجع القرطبي / ج ١٨ / ص ٧٠.

فلا يخضعن لسيادة غير السيادة الالهية بالتسليم المطلق للازواج و الاقارب ، انما يجب ان يخلصن الولاء و الطاعة للقيادة الرسالية وحدها ، و هذا هو اصل الولاء ، و هو التجلي الحقيقي للتوحيد في حياة الفرد ، و لعل هذه البصيرة تهدينا الى ضرورة مشاركة المرأة في الحقل السياسي انطلاقا من واجبها في اقامة حكم الله ، و مناهضة قوى الشرك و الضلال ، و عليها ان تنتخب الولي الشرعي بمحض ارادتها و كامل حريتها.

]و لا يسرقن[

من ازواجهن او من ابناء المجتمع.

]و لا يزنين[

و لعل هذين الشرطين موجهين بالخصوص للمهاجرات اللائي تركن ازواجهن ، لانهن فقدن المنفق فقد تدعوهن الحاجة الى السرقة ، او تضطرهن شهوة الجنس الى الزنا ، بينما الآية بلفظها مطلقة تشمل كل امرأة مسلمة.

]و لا يقتلن اولادهن[

معنويا و لا ماديا ، و لعل الاجهاض من مفردات القتل المنصرفة اليها الاية الكريمة.

]و لا يأتين ببهتان يفترينه بين ايديهن و ارجلهن]و هاتان المفردتان تتصلان بموضوع الزنا اتصالا مباشرا ، فان الزانية التي تتورط بالحمل تجد نفسها امام خيارين : فاما تتخلص من عار الزنا بقتل حملها ، و اما ترمي به احد بانه اغتصبها ، و لعل هذه الصفات (السرقة ، و الزنا ، و اتيان البهتان (مماعرفت به المرأة في الجاهلية ، كما انها بصورة عامة من ابرز المفردات الخلقية و السلوكية التي يمكن ان تتورط فيها المراة ، و بالذات البهتان ، فان موقع المرأة الحساس في المجتمع المسلم يجعلها امضى اثرا في النيل من شخصيات الآخرين و اعراضهم ، كما انها مرهفة الاحساس فقد تظن السوء في رجل نظر اليها من غير قصد.

و قد اجمع اشهر المفسرين على ان المقصود هو الحمل باعتباره يقع بين اليدين و الرجلين ، و بينهما ينشأ و يرتضع.

]و لا يعصينك في معروف[

بل يسلمن تسليما مطلقا للقيادة الرسالية ، باعتبارها السلطة الشرعية و الولي الاكبر في المجتمع المسلم ، فلا يجوز للمرأة ان تجعل لاحد مهما كان) زوجها او ابوها او اخوها) ولاية فوق ولاية قيادتها ، او ان تعصيها ولو في معروف واحد.

و المعروف هو عموم الواجبات و الخيرات ، قال الامام ابو عبد الله الصادق (ع) : " هو ما فرض الله عليهن من الصلاة و الزكاة ، و ما امرهن به من خير " (١) ، و لعلنا نستشف من قوله " في معروف "ان الولاية الحقيقية للقيادة واقعة في حدود ولاية الله ، فلو انها - جدلا - امرت بغير المعروف لا يجوز اتباعها ، بل يكون عصيانها هو الاولى ، و هذا الامر محتمل في غير القيادات المعصومة.

و هذه المفردات التي يفرضها الاسلام شروطا للبيعة مع القيادة الرسالية تظهر اهتمام الدين بالمرأة ، باعتبار ان صلاح المجتمع متأسس على صلاحها . و اذا قبلن المؤمنات تلك الشروط و التزمن بها هنالك تبايعهن القيادة.

(1)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٣٠٨.

]فبايعهن و استغفر لهن الله ان الله غفور رحيم[

و استغفار الرسول لهن الاخطاء السابقة و الجانبية التي قد يتورطن فيها ، و هذه الآية تعطي المعنى الحقيقي للهجرة بانه ليس مجرد الانتقال من مجتمع الى آخر صالح ، او الانفصال المادي عن المجتمع الضال ، انما هو التطهر من السلوكيات المنحرفة التي كانت سائدةعلى المجتمع الضال ، كالسرقة و الزنا و البهتان و .. و .. التي تعرضت الآية لذكر أهمها.

[13]و في ختام السورة يؤكد ربنا امره بمقاطعة اعداء الله فيقول:

]يا ايها الذين امنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الاخرة كما يئس الكفار من اصحاب القبور]ان محور الانسان المؤمن هو رضى الله عز وجل ، فهو لا يضع ولاءه الا عند اهله ، اما الذين يسخطون الله باعمالهم من الظلمة و الضالين فانه براء منهم . و قد تعددت اقوال المفسرين في بيان هوية المعنيين بـ " غضب الله عليهم " فذهب اكثرهم الى انهم اليهود ، لقوله تعالى " غير المغضوب عليهم و لا الضالين " و ما ورد في تفســـيرها و تأويلها من الاخبار ، و الذين يظهر انهم كل من يعمل ما يستحق غضب الله ، و لعلهم اناس من داخل المجتمع الاسلامي كالمنافقين و الحكام الظلمة و العلماء الفسقة ، و تشبيهالله لهم بالكفار يهدي الى انهم غير الكفار ، بل هم الذين يحاولون السيطرة على مقاليد الحكم في البلاد الاسلامية بغير حق !

سورة الصف

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الاعمال باسناده عن ابي جعفر - عليه السلام - قال : " من قرأ سورة الصف و ادمـــن قراءتــها في فرائضه و نوافله صفه الله مع ملائكته و انبيائه المرسلين. "

نور الثقلين / ج ٥ / ص ٣٠٩

الاطار العام

ما هي صبغة التحرك الرسالي و استراتيجيته ؟ نستلهم من سورة الصف خمسة بصائر هي تحدد لنا ذلك:

اولا :ان الحركة الرسالية ربانية الصبغة كما قال ربنا سبحانه " صبغة الله و من احســن من الله صبغة " ، و لذلك فهي لا تخضع لاطر عنصرية او اقليمية او حزبية ، انما تتسامى الى حيث المؤمنون كالجسد الواحد ، يشد بعضهم بعضا.

و هذه الصبغة تتجلى في تسبيح الله تعالى في فاتحة السورة ، فكل ما في السماوات و الارض يسبح لله وحده فهو وحده القدوس ، اما غيره فيستمد قداسته و شرعيته منه و بقدر قربه منه و من قيم الوحي.

ثانيا : انعدام المسافة بين النظرية و التطبيق ، بين القول و الفعل ، لان هذه هي مسافة المقت و الفشل ، و ثغرة يتسرب منها النفاق الى ضمير الحركة ، كما يتسلل منها العدو الى كيانها.

ثالثا : الوحدة في الظاهر و الباطن ، كما البنيان المرصوص ، لا ترى فيه فطورا يذهب بصلابته ، و لا خدشا ظاهرا يجعل العدو يطمع في هدمه.

رابعا : التسليم للقيادة الالهية المتمثلة في رسول الله و اوصيائه - عليه و عليهم سلام الله - باعتبارها وسيلة الى الله ، و محور لوحدة عباده المؤمنين.

خامسا : الجهاد في سبيل الله باعتباره يمثل حالة التحدي الشجاع لاعداء الرسالة.

و لعل الجهاد محور هذه السورة التي سميت لذلك بالصف ، و لكن الحديث عنه يدور حول ثلاثة محاور:

الف / ان يكون الجهاد تحت راية القيادة و بصف مرصوص . و هذا اهم المحاور الثلاث.

باء /ان الله يظهر دينه على الدين كله ، مما يعطي المجاهدين الامل ، و يزودهم بروح النصر ، كما يرسم لهم استراتيجيات المستقبل و الا يكون الجهاد ذا اهداف محدودة.

جيم / التحريض على الجهاد بما يوحي الى ضرورة التفرغ له حتى تتم الصفقة الرابحة بين العبد و ربه.

يقاتلون في سبيله صفا
بينات من الآيات
كونوا انصار الله
هدى من الآيات

مهما تكن للباطل من جولة فان الدولة للحق ، و النصر و الفتح للمؤمنين المجاهدين و هم انصار الله و جنده ، و لكن هذه الحقيقة لا يمكن ان تحدث في الفراغ و بعيدا عن السنن الالهية الحاكمة في الحياة ، و منها سنة الصراع ضد الكفر و الشرك و مجاهدتهما ، فلا بد ان تنبري للحق فئة تقاتل في سبيل الله صفا ، و تحت راية القيادة الرسالية ، و تتاجر مع الله (تبيع نفسها و تشتري رضوانه و الجنة و الفتح) ، كما فعل الحواريون الذين التفوا حول عيسى ابن مريم - عليه السلام - و نصروا الحق فاصبحوا ظاهرين باذن الله.

و حينما نتدبر ايات هذه السورة المباركة فاننا نجدها تعبق بشذى الولاية الالهية ، ففي البداية كان الكلام عن الاذى الذي لقيه كليم الله من قومه ، و ربما كان ذلك الاذى متمثلا في رفضهم لاخيه و وصيه هارون (عليهما السلام) لما استخلفه و ذهب الى مناجاة ربه، ثم عبادتهم للعجل رمز القيادة المنحرفة في

المجتمع انذاك ، كما ان عيسى - عليه السلام - بشر بقيادة الرسول (ص) و لكن الكفار و المشركين من الناس رفضوا التسليم له ، ثم ان القران يؤكد بان الله سوف يتم نوره رغما على الكفار و المشركين الذين يسعون لاطفائه . و لا ريب ان القيادة الرسالية مشكاة نور الله و وحيه ، و التي لا يحصل الانسان على الكمال الالهي الا بالتسليم لها.

بينات من الآيات

] [9 - 8]يريدون ليطفئوا نور الله بافواههم[

و النور لا يطفؤه نفخ الانسان عليه ، فكيف اذا كان ينبعث من عند مليك السماوات و الارض ؟ و هذا التعبير من بلاغة القرآن و بديعه في تقريب المعنى الى ذهن المتدبر . و كلمة الافواه يستخدمها القرآن للدلالة على الكلمات الكاذبة التي لا تنطلق من القلب و لا تملك رصيدا من الواقع ، كالثقافات الجاهلية و الدعايات المضللة التي تبثها اجهزة الاعلام الطاغوتية ضد الحق و رموزه و اتباعه.

و قد اختلفت اقوال المفسرين في بيان مصداق النور الالهي ، فقال بعضهم : انه الرســالة المتمــثلة في القــرآن و سائـــر كتب الله ، و قال آخرون : انه الرسول (ص) ، كما اولته بعض روايات اهل البيت في الامامة و صاحب الامر - عجل الله فرجه - ، و الذي يظهر لي ان الحقائق الكبرى تتواصل فيما بينها ، فمثلا العقيدة بالتوحيد مبعث للعقيدة بالعدل ، و هذه تبعثنا نحو الايمان بالآخرة ، و كل هذه الحقائق تتركز في الايمان بالولاية ، و هكذا يحدثنا الكتاب عن الحقائق الكبرى بلا فصل بينها و لا تمييز ، مما نجد لها اكثر من مصداق ، فمثلا عندما يأتي في القرآن ذكر لحبل الله او نور الله فاننا نجد له اكثر من مصداق ، فحبله كتابه ، و كذلك القيادة التي تمثل امتداده في المجتمع ، لا ينفصل احدهما عن الآخر ، و لا يؤدي دوره العملي بتمامهمن دونه ، و هكذا فسرنا قوله سبحانه : " و اعتصموا بحبل الله جميعا " بانه الوحي الالهي و القيادة التي تمثله ، و هكذا اوضح الرسول - صلى الله عليه وآله - في حديث الثقلين (كتاب الله و عترته) انهما لن يفترقا حتى يردا عليه الحوض ، و كذلك هنا لايوجد اي تعارض بين اقوال المفسرين ، فنور الله واحد و لكن له تجليات عديدة ، فهو يتجلى في كتابه كما يتجلى في الرسول و في الامام الذي يخلفه ، حسبما مر في تفسير اية النور (١. (

]و الله متم نوره و لو كره الكافرون[

اذن فنوره لا يتم بطوع الناس كلهم ، انما في ظروف من التحدي و الصراع بين ارادة الحق و اتباع الباطل ، ينتصر فيها حزب الله رغم اعدائه ، و رغم كرههم و سعيهم لاطفاء نوره بشتى الوسائل و الطرق ، فهو ليس محايدا في الصراع بين الحق و الباطل ، و ان كانت حكمتهتقتضي امتحان المؤمنين و تعريضهم للفتنة بعض الاحيان . و لكن السؤال : هل ان نوره تعالى كان يشكون النقص حتى يكتمل ؟ كلا .. فلماذا قال انه سيتم نوره ؟

و الجواب : ان للنور كمالين : الاول في ذاته ، الثاني فيما يتصل بانتشاره ، و نور الدين كامل في ذاته ، و لكن انما يتم كمالا بانتشاره في آفاق المعمورة ، و ذلك باسقاط كل الحجب التي تمنع اتصال الناس بنور الله . و لعل من مصاديق اتمام النور ان تلتحم مسيرة العقل المزكى بالوحي المنزل ، فيتحول القرآن الى برامج و مناهج عملية مفصـــلة تحكم الحياة و تسير البشرية على سبيل الهدى و الصواب . افتدري كيف ؟ بان يتكامل عقل الانسان بزيادة علمه في كافة الحقول حتى يكتشف المزيد من اسرار الدين و يقتنع الجميع بانه منزلمن عند الله ، فيصبح الدين ضرورة

(1)هنالك تجد بيانا للعلاقة بين قوله تعالى : " الله نور السماوات و الارض " و بين قوله : " في بيوت اذن الله ان ترفع. " ..

علمية بعد ان كان ضرورة نفسية و اجتماعية ، و هنالك يكشف الله الغطاء عن وجه وليه الاعظم مهدي هذه الامة الذي وعد الرسول بظهوره في آخر الزمان فيملأ الارض قسطا و عدلا بعد ان ملئت ظلما و جورا .

اذا كتاب الله كامل و انما الناس بحاجة الى الارتفاع الى مستواه بالتدبر و التعلم حتى يتم الله نوره.

و هذه الآية و التي تليها تحلان جدلا حول مسيرة البشرية هل هي نحو التكامل او الانحطاط ، فحسب النظرية الدينية قال بعضهم : انها تتجه نحو الانتكاس ، و احتجوا على ذلك بان حوادث القيامة التي تطوى بها صفحة الحياة الدنيا انما تقع نتيجة لوصول البشرية الى منتهى الانحراف ، و نقل البعض عن النبي ما نصه : " ان خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم حتى يأتي أناس همج رعاع اتباع كل ناعق " ، و رووا عن الرسول - صلى الله عليه وآله - قوله : " انما تقوم الساعة على كل لكع ابن لكع " ،و انطلقوا من ذلك في تقييم مسيرة الاجيال و انها تسير نحو الانحطاط.

و قال اخرون : بل الحياة تسير نحو التكامل ، و هذا ما نستلهمه من آيات القرآن و من بينها هاتان الايتان ، فانهما تنطويان على بشارة بان الكمال ينتظر البشرية في المستقبل ، و ان نور الله سوف يتم يوما من الايام ليشمل كل الارض و يهيمن على الناس جميعا . و هكذا جعل ربنا خاتم انبيائه افضلهم . و لا غرابة حينئذ لو قرانا الاخبار القائلة بان اخر اوصيائه الاثنى عشر من ولده هو الذي ينهض باعباء تلك النهضة العالمية نحو قمة السعادة و الكمال.

قال علي بن ابراهيم القمي (رض) : " و الله متم نوره " بالقائم من ال محمد) ص) حتى اذا خرج يظهره الله على الدين كله ، حتى لا يعبد غير الله ، و هوقوله - عليه السلام - : " يملأ الارض قسطا و عدلا كما ملئت ظلما و جورا (1) "، و قال امير المؤمنين (ع) : " حتى لا تبقى قرية الا و ينادى فيها بشهادة ان لا اله الا الله و محمد رسول الله بكرة و عشيا " بلى . لو قسنا مسيرة البشرية بالساعات و الايام فقد نجد بعض امارات التراجع ، و ربما واجهتنا بعض الانتكاسات ، و لكن المحصلة النهائية القائمة على اساس الارقام الاستراتيجية (بالاجيال و القرون) تهدينا الى ان المسيرة تتجه نحو الامام ، فليس من شك ان حال البشرية الان خير مما كانت عليه قبلقرنين من الزمن لو اتخذنا مجمل القيم الدينية مقياسا ، كالتقدم العلمي ، و الرفاه ، و الحرية و .. و..

و نجد في الآيتين الكريمتين بيانا لمسيرة الصراع بين الافكار و الامم ، ففي المرحلة الاولى يدور الصراع بين الفلسفات الدينية و القيم البشرية ، فتنتصر الفكرة الدينية على الاخرى . و ها نحن نلاحظ بشائر عودة الناس الى الدين و نبذها للكفر بالله عز وجل ، و اظهر تلك البشائر ما نجده اليوم من تراجع سريع و

واسع للمد الالحادي (و منه الشيوعية) في سائر انحاء العالم ، و سوف يستمر هذا التحول حتى ياتي اليوم الذي تعود البشرية بمعظمها الى الله و الدين . فتبدا المرحلة الثانية و التي يدور فيها الصراع بين الدين الخالص و الاديان المحرفة ، و قد تكفل ربنا باظهار دينه الحق على كل الاديان.

]هو الذي ارسل رسوله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون]و على خاتمة هذه المرحلة ينتصر الله بوليه الاعظم الامام الحجة بن الحسن - عجل الله فرجه - لدينه الخالص . و حيث حدثتنا الآية الثامنة عن المرحلة الاولى(١) تفسير القمي / ج ٢ عند الاية.

(2)مجمع البيان عند تفسير الاية.

جاءت خاتمتها : " و لو كره الكافرون " ، بينما اختتم الاية التاسعة بالقول " : ولو كره المشركون " لان الذين يعاكسونهم انما هم اتباع التوحيد الخالص من دنس الشرك و الارتياب!

[13 - 10]و لان هذا التكامل يتحقق عبر عشرات الالوف من المواجهات الممتدة عبر قرون متطاولة فانه لا يخص عصرا او طائفة او جهة ، انما هي سنة الهية ، كسنة الضياء الذي ينبعث من الشمس و يهزم جيوش الظلام من كل بقعة .. فهي لا تخص زمانا او مكانا او تجمعا.

و هكذا تكون هذه البصيرة القرانية شعلة امل في افئدة المؤمنين بالله في كل مواجهة لهم مع الكفر ، و الطغيان ، و تعطيهم روح النصر ، و تزودهم بوقود الاستقامة و الصبر.

و هكذا كانت هذه البصيرة - ضمن السياق القرآني -تعبئة روحية لمن يريد التجارة مع الله و التفرغ للجهاد في سبيله ، بانه انئذ يصبح ضمن تيار حركة التاريخ في اتجاه التكامل و اتمام نور الله و اظهاره على الدين كله.

بلى . هذه الحقيقة تهدينا ايضا الى ان ذلك الامل يتحقق على ايدي المؤمنين و بما يبذلونه من تضحيات .

]يا ايها الذين امنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم]و النجاة من النار اعظم طموحات المؤمنين لعلمهم بان الانسان واقع في العذاب مالم يسعى للخلاص منها . و يحدد القرآن طريق النجاة في الالتزام بثلاثة شروط اساسية هي : الايمان بالله ، و التسليم للقيادة الالهية ، و الجهاد بالمال و النفس مناجل الحق.

]تؤمنون بالله و رسوله و تجاهدون في سبيل الله باموالكم و انفسكم]و يبدو ان الله قدم الجهاد بالمال على النفس لان الانسان يبدا بالجهاد بالمال فيصعد درجات في الايمان الى ان يصل الى الجهاد بالنفس ، كما ان الجهاد بالمال يهيء وسائل الجهاد بالنفس . هل رايت حربا او مقاومة الا و يسبقها الاعداد لهما بالسلاح و العتاد و الزاد و الاعلام ، و كلها لا تتحقق الا بالمال .. و حيث يعتبر البعض الجهاد خسارة للامة يؤكد القرآن بانه خير عظيم للمجتمع ، و اي خير اعظم من العزة ، و الاستقلال ، و الحرية ، و اقامة حكم الله ، و هي كلها من ثماره و نتائجه.

]ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون[

و خير الجهاد يعم الانسان و المجتمع المجاهد في الدارين : في دار الاخرة متمثلا في الغفران ، و سكنى الجنة و هو اعظم الخير..

]يغفر لكم ذنوبكم و يدخلكم جنات تجري من تحتها الانهار و مساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم]جاء في تفسير هذه الاية خبر ماثور عن رسول الله - صلى الله عليه واله - انه قال : " قصر من لؤلؤ في الجنة ، في ذلك القصر سبعون دارا من ياقوتة حمراء ، في كل دار سبعون بيتا من زمردة خضراء ، في كل بيت سبعون سريرا ، على كل سرير سبعون فراشا من كل لون ،على كل فراش امرأة من الحور العين ، في كل بيت سبعون مائدة ، على كل مائدة سبعون لونا من الطعام ، في كل بيت سبعونو

صيفة ، و قال : و يعطي الله المؤمن من القوة في غداة واحدة ما يأتي على ذلك كله " (١. (

و في دار الدنيا متمثلا في النصر و الفتح و التحرر..

]و اخرى تحبونها نصر من الله و فتح قريب و بشر المؤمنين]قيل : بشرهم بالنصر لما في ذلك من السرور و رفع المعنويات ، و يبدو لي ان البشارة هنا تنصرف ايضا الى اشياء اخرى غير الجنة و النصر ، من ابرزها لقاء الله و رضوانه . و هنا ملاحظة نستوحيها من امر الله للرسول بتبشير المؤمنين هي ان على القائد ان يثبت روح الامل و الرجاء في صفوف اتباعه على الدوام ، ليرفع من معنوياتهم ، و لكي لا يفقدوا حماسهم و املهم بسبب التحديات التي في الطريق.

و هذه الآيات الكريمة تحدد الاستراتيجيات الاساسية للجهاد ، فهو على صعيد الآخرة و قبل كل شيء يجب ان يستهدف النجاة من النار و غفران الله و كذلك الجنة ، و على صعيد الدنيا النصر و الفتح ، و الفتح اشمل من النصر ، فالنصر هو هزيمة العدو عسكريا و قد يكون محدودا ، بينما الفتح هو الانتصار الشامل و في كل الابعاد.

و تاكيد ربنا على ان الهدف الآخروي هو الغاية العظمى للجهاد من شأنه السمو بروح المؤمنين الى سماء القرب من الله ، و علاج اي حالة من حالات التوقف التي قد يبتلى بها المجاهدون بسبب اليأس من طول الانتصار ، فان الجهاد ليس موضوعا للانتصار على العدو و حسب بللنيل رضوان الله ، و هو واجب شرعي و فريضة كالصلاة و الصيام لا يسقطها عن كاهل المجتمع ا التجمعات الرسالية مجرد ان(١) نور الثقلين / ج ٥ / ص ٣١٨.

يكون الانتصار صعبا او بعيد المنال.

[14]و تأتي خاتمة السورة لتشير الى المراحل الاساسية في الحركات الرسالية ، و هي اربع مراحل:

الاولى : انبعاث القائد الرسالي في المجتمع ، و الذي يمثل البذرة الاولى و الاساسية للحركة و التغيير.

الثانية : التفاف مجموعة من الناس حوله ، و ايمانهم بفكرة ، و تسليمهم لقيادتهم ، و هم الطلائع.

الثالثة :توسع دائرة الحركة و تيارها في المجتمع ، الامر الذي يقسمه الى جبهتين : جبهة الحق ، و جبهة الكفر ، مما ينتهي به الى الصراع.

الرابعة : انتصار الحق و اهل على جبهة الباطل كعاقبة نهائية للصراع.

]يا ايها الذين امنوا كونوا انصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحوارين [جمع حواري و هم الخلص الخواص من اتباعه ، قيل : سموا حواريين لانهم كانوا قصارين حيث ان الله - حسب هذا القول الذي ذهب اليه قتادة - امر عيسى - عليه السلام - فقال : اذا دخلت القرية فأت النهر الذي عليه القصارون فأسالهم النصرة ، فأتاهم عيسى و قال : من انصاري الى الله ؟ قالوا : نحن ننصرك ، فصدقوه و نصروه . (١)(١) القرطبي / ج ١٨ / ص ٩٠ و لعل القصار الذي يبذل قصارى جهده .. و سموا بذلك لمبالغتهم في العبادة و الطاعة لله.

و قيل : اصل الكلمة من الحور و هو البياض ، و انما سموا كذلك لبياض قلوبهم او نقاء قلوبهم وصفائها في الولاء لعيسى ، و يبدو ان هذا اقرب و ابلغ دلالة على معناها المصطلح الذي يدل على اقرب الناس من الرسل و الاوصياء ، و هذا المعنى يقابل النفاق و يرادف معنىالمخلص.

و قيل ان عيسى - عليه السلام - بعث كل واحد من الحواريين الى منطقة في انحاء المعمورة لابلاغ الرسالة ، مما يعكس مدى تفانيهم في سبيل الدعوة حيث ان الواحد منهم كان يمثل امة في دفاعه عن الحق و تحديه للباطل . (١)[من انصاري الى الله قال الحواريون نحن انصار الله فآمنت طائفة من بني اسرائيل و كفرت طائفة فايدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين]و هذا الشاهد من التاريخ

يهدينا الى انه تعالى يؤيد المجاهدين في سبيله ، و ينصرهم على عدوه و عدوهم.

(1)راجع المصدر تاريخ الطبري / ج ٣ / ص) 737طبعة اوروبا. (

سورة الجمعة

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

في كتاب ثواب الاعمال باسناده عن ابي عبد الله - عليه السلام - " الواجب على كل مؤمن اذا كان لنا شيعة ان يقرا في ليلة الجمعة بالجمعة و سبح اسم ربك الاعلى ، و في صلاة الظهر بالجمعة و المنافقين ، فاذا فعل ذلك فكأنما يعمل بعمل رسول الله - صلى الله عليه وآله - و كان جزاؤه و ثوابه على الله الجنة. "

نور الثقلين / ج ٥ / ص ٣٢٠

قال رسول الله - صلى الله عليه وآله - : " من ادمن قراءتها كان له أجر عظيم ، و امنه مما يخاف و يحذر ، و صرف عنه كل محذور "ثواب الاعمال / ص ٣٠٩

الاطار العام

تذكرنا سورة الجمعة بفضل الله الاكبر المتمثل في رسالات الله و التي سببت اصلاحا شاملا لحياة البشرية ، و بالذات الذين تنزلت في محيطهم آيات الله ، فبالرسالة طهر النبي اتباعه من ارجاس الجاهلية و اغلالها ، و علمهم الكتاب و الحكمة ، و رسم خطا اصلاحيا ممتدا عبر الزمان و المكان ، و لولا الرسول لكان البشر يعود الى جاهليته الاولى.

لان حملة الرسالة و ورثة علمها قد خانوا مسؤولياتهم ، يتعرض السياق الى الذين لم يتحملوا مسؤولية التوراة بعد ان حملوها مشيها لهم بالحمار الذي يحمل اسفار العلم دون ان ينتفع بها في شيء ، و في ذلك تحذير من طرف خفي للمسلمين الا يصبحوا مصداقا اخر لهذا المثل.

و ذا يذكر بشيء من واقع الانحراف لدى اليهود - الذين من ابرز صفاتهم التشبث بالمادة و الحياة الدنيا " و لتجدنهم احرص الناس على حياة " (١) - يعطينا(١) البقرة / ٩٦.

مقياسا دقيقا لمعرفة الداعية للحق عن المدعي له و هو ان من يحمل الرسالة و يؤمن حقا بمحتواها لا يبالي بالموت دفاعا عنها.

ثم يؤكد اهمية صلاة الجمعة ليركز في المؤمنين التوجه نحو القيم بدل اللهو و المادة ، و لكي يثبت للامة الناشئة تميزا عن الامم الاخرى و شخصية مستقلة بفرضها مناسبة دينية اجتماعية في مقابل سبت اليهود و احد النصارى.

و عندما نتعمق في تدبرنا نجد علاقة وثيقة بين ابتداء السورة بالتسبيح و انتهائها بالدعوة الى الصلاة و الصبر عليها امام اغراء التجارة و اللهو ، ذلك ان الصلاة هي اظهر مصاديق التسبيح في حياة المؤمن.

و يعلمهم الكتاب و الحكمة
بينات من الآيات

[1]لان الله خلق الخلق للعبادة فقد اودع في ضميرهم الحاجة اليه ، و فطرهم على الاحساس بما هو مرتكز فيه من النقص و العجز ، و المهم المعرفة به حيث لا حد و لا نقيصة و لا ضعف ، لذلك فان الخلق لا يرون لانفسهم وجودا من دون فضله و لطفه و هباته ، و لا هدفااسمى من التقرب اليه عبر تنزيهه و تسبيحه و الاستزادة من فضله بذكر اسمائه الحسنى ، لذلك فالخليقة في تسبيح دائم له عز وجل.

]يسبح لله ما في السماوات و ما في الارض[

كل بلغته و طريقته ، هذه هي مسيرة الكائنات و وجهتها ، و اذ يضع القرآن الانسان امام هذه الحقيقة الكبرى فلكي يدفعه نحو الالتحاق بها ، و يبين له ان عدم خضوعه لله شذوذ خطير يضعه في مسيرة معاكسة لارادة ربه و للخليقة جميعا ، و بالتالي فانه يواجه تحديات كبيرة تسحقه و تؤدي به الى الدمار ، فلا طريق للنجاة منهاو الوصول الى الاهداف و التطلعات الا بمسايرة الوجود بقيمه و سننه في مسيرته الصواب ، من خلال الاعتراف بالعجز و النقص المرتكز فيه و المعرفة بكمال ربه المطلق ، و من ثم تسبيحه و الخضوع له . و لانه تعالى لا تدرك ذاته الابصار و لا العقول و لا الاوهام فقد جعلاسماءه وسيلتنا اليه و ذكرنا بها فقال:

]الملك القدوس العزيز الحكيم[

قال ابو جعفر (عليه السلام) : " خلقها وسيلة بينه و بين خلقه ، يتضرعون بها اليه ، و يعبدونه ، و هي ذكره " (١) و عن الرضا (عليه السلام) قال " : هو نفسه ، و نفسه هو ، قدرته نافذة فليس يحتاج ان يسمي نفسه ، و لكنه اختار لنفسه اسماء لغيره يدعوه بها ، لانه اذا لم يدع باسمه لم يعرف " (٢. (

و اذا كنا نريد معرفته بأسمائه فلا بد ان نتيقن بانها غير ذاته سبحانه ، ففي الخبر عن الصادق (عليه السلام) : " فلو كان الاسم هو المسمى لكان كل اسم منها إلها ، و لكن الله معنى يدل عليه بهذه الاسماء و لكنها غيره " (٣) ، و لا بد ان يتذكر الانسان هذه الحقيقة و هو في طريق العرفان بربه حتى لا تذهب به المذاهب ، فيحاول كما فعل بعض الفلاسفة و المجسمة ان يتصور به بوهمه او بعقله المحدود فيضل عنه الى خلقه ، فقد " تاهت هناك عقولهم ، و استخفت حلومهم ، فضربوا له الامثال ، و جعلوا له اندادا ، و شبهوه بالامثال ، و مثلوه اشباها ، و جعلوه يزول و يحول ، فتاهوا في بحر عميق لا يدرون ما غوره ، و لا يدركون كنه بعده " (٤ (، فسبحان الله عما يصفون و يشركون . و انى للانسان ان يتصور خالقه ؟!

(1)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٢٩٥.

(2)المصدر.

(3)المصدر.

(4)المصدر عن الامام الكاظم (ع. (

بلى .نحن نقول الملك و القدوس و العزيز و الحكيم و لكن دون حد و تشبيه ، فهو واسع الملك ، عظيم القداسة ، دائم العزة ، و نافذ الحكمة . و تتجلى هذه الاسماء حينما يعود الانسان الى نفسه يتفكر فيها او يرمي ببصره في الافاق من حوله.

نعم ، ان ربنا الملك الذي لا حد لملكه ، و انما يملك كل شيء ملكا ، يملك شهوده و غيبه ، حاضره و مستقبله ، و يهيمن عليه بجميع ابعاده ، و لا يملك شيء و لا شخص شيئا الا بما يملكه . و كل هذا آيات ملكوته و اكثر من هذا مما لا يمكن لنا ان نتصوره.

و هو قدوس بمعنى النزاهة المطلقة من كل نقص و عيب و حد ، فليس شيء و لا احد اولى منه بالتسبيح و العبادة . كما انه القادر بالعزة على ما يشاء ، و الذي لا يذل او يحتاج الى غيره . و حيث نسبحه او يدعونا الى تسبيحه فليس لحاجة منه الينا و لا الى ذلك ، لانه سبوح و عزيز و ملك و قدوس بذاته ، و انما بحكمته تفضل علينا بان جعل تسبيحه طريقا لنا الى رضوانه و ثوابه و هو الحكيم . و هناك علاقات متينة بين الاسماء الحسنى المذكورة في الآية الكريمة بعضها مع بعض ، فالملك الحق لا بد ان يكون نزيها و قويا و حكيما ، لكي يكون مهيمنا مع ملكه . و العزة لا تكون الا بالملك ، كما لا يكون الملك الا بها ، و هكذا توجب القداسة العزة . و لم يقل تعالى عزيزا و حسب بل ذكر الحكمة ايضا فهو ملك ذو قوة في حكمة ، لا يدبر الحياة بالقوة وحدها انما يهيمن عليها بالقوة و يدبرها بالحكمة.

و هنا ينبغي التأكيد على مسألة مهمة و هي ان ما تقدم من التحقيق حول اسماء الله لا يعدو كونه محاولة محدودة لتقريب معانيها ليس اكثر ، و الا فان الانسان لا يستطيع ان يفي بالمعنى حينما يتحدث عنها.

[2]و الاسماء الاربعة الحسنى لله تجلت عندما انبعث الى الناس رسولا من انفسهم فجاء ليهديهم من الضلال و يعيدهم الى مسيرة الكائنات بعد الابتعادعنها ، و هكذا انطلقت مسيرة المجتمع الاصلاحية حيث تحول من الشتات الى الالفة ، و من الضعف الى القوة ، و من الجاهلية و التخلف الى العلم و الحضارة.

]هو الذي بعث في الامين رسولا منهم[

قال كثير من المفسرين ان " الاميين " هم الذين ينتسبون الى مكة ام القرى ، و يحتمل انهم المتفرقون اميا وقيما ، و الاظهر انهم الجاهليون ، الا انه ينبغي القول بان الامي و الجاهلي ليس الذي لا يقرأ و لا يكتب فان ذلك هو المعنى الحرفي الظاهر للكلمة ، فقد ينسب العالم الذي يقرا و يكتب الى الجاهلية و الامية لانه لا يتفاعل مع معارفه (١) ، و عدم القراءة و الكتابة مظهر واحد من مظاهر التخلف و الجهل ، و للجاهلية مظاهر شتى تصدق عليها جميعا كلمة الامي التي يبدو انها غلبت لتشمل كل ابعاد الجاهلية ، و نستوحي ذلك من استخدام القرآن الحكيم لها في سياق حديثه عن اهل الكتاب و هم يقرؤون و يكتبون و فيهم دعاة العلم اذ قال : " و منهم اميون لا يعلمون الكتاب الا اماني و ان هم الا يظنون " (٢) ، و لكن لماذا بعث الله في الاميين بالذات ؟

/ 1اذا اخذنا بالتفسير الاول (انهم اهل مكة (فذلك تجل لحكمة الله حيث يبعث رسله في مركز البلاد و اكبر مدنها و اهمها و حيث بؤرة الفساد و الضلال ، فان ذلك اكبر اثرا في التغيير.

/ 2و على التفسير الاظهر (انهم الجاهليون) نهتدي الى ان الله يستنقذ البشرية(١) قال الصادق (عليه السلام) : " كانوا يكتبون ولكن لم يكن معهم كتاب من عند الله ، و لا بعث اليهم رسول فنسبهم الله الى الاميين " نور الثقلين / ج ٥ / ص ٣٢٢.

(2)البقرة / ٧٨.

حينما تتجه حضارتها نحو الدمار و الانتهاء.

ثم ان الله حين بعث رسوله في الوسط المتدني في العلم عرفنا بان الرسالة لم تكن تكاملا ذاتيا وصلت اليه البشرية و المدنية ، كلا .. انها كالغيث الذي ينزل من السماء على ارض جرداء فيملأها خصبا و جمالا . انها كما اشعة الشمس تهبط على و ديان الظلام فتنشر عليها الضياء و الروعة . انها تاتي من خارج اطار السياق التاريخي فتحدث فيه ثورة بديعة و تحولا عظيما لا نجد له اي تفسير الا في الرسالة ، و ليس كما يدعي البعض بانها حجر و عامل مساعد لعوامل حضارية لدى العرب ، فان الدلائل التاريخية كلها تشير الى وجود جاهلية)
امية) شاملة في كل الابعاد في المحيط الذي بعث فيه الرسول) صلى الله عليه وآله) عبرت عنها فاطمة بنت محمد (عليها السلام) بقولها عن ابيها : " ابتعثه الله اتماما لامره ، و عزيمة على امضاء حكمه ، و انفاذا لمقادير حكمته ، فراى الامم فرقا في اديانها ، عكفا على نيرانها ، عابدة لاوثانها ،

منكرة لله مع عرفانها ، فأنار الله بأبي محمد (صلى الله عليه وآله) ظلمها ، و كشف عن القلوب بهمها ، و جلى عن الابصار غممها ، و قام في الناس بالهداية ، فانقذهم من الغواية ، و بصرهم من العماية ، و هداهم الى الدينالقويم ، و دعاهم الى الصراط المستقيم " (١) ، و قالت) عليها السلام) : " و كنتم على شفا حفرة من النار مذقة الشارب ، و نهزة الطامع ، و قبسة العجلان ، و موطىء الاقدام ، تشربون الطرق ، و تقتاتون القد ، اذلة خاسئين ، تخافون ان يتخطفكم الناس من حولكم " (٢. (

و هناك سؤال : لماذا سمي النبي اميا ، و قال الذكر " رسولا منهم " ، فما هي النعمة في ان يكون النبي اميا ؟ قال الماوردي : الجواب من ثلاثة اوجه : احدها لموافقته ما تقدمت به بشارة الانبياء ، الثاني : لمشاكلة حاله لاحوالهم فيكون اقرب(١) الاحتجاج / ج ١ / ص ٩٩.

(2)المصدر / ص ١٠٠.

الى موافقتهم ، الثالث :لينتفي عنه سوء الظن في تعليمه ما دعى اليه من الكتب التي قراها و الحكم التي تلاها (١. (

بيـد ان الجـواب الافضـل هو ما ذكر في حديث شريف مأثور عن الامام الباقر (عليه السلام) كما سيأتي.

او هناك شبهة حاول البعض ان يدسها عند قول الله عن الرسول (صلى الله عليه وآله) : " منهم " اذا نسبوا الى النبي الاكرم الامية و الجهل ، و ائمة الهدى من جهتهم سعوا لدفعها بصورة منطقية ، فقد قيل للامام الباقر (ع : (ان الناس يزعمون ان الرسول (صلى الله عليه وآله) لم يكتب و لا يقرأ ، فقال : " كذبوا لعنهم الله . انى يكون ذلك و قد قال عز وجل : " هو الذي بعث في الاميين ... و يعلمهم الكتاب و الحكمة " فيكون يعلمهم الكتاب و الحكمة و ليس يحسن ان يقرأ او يكتب ؟ " ، فسئل : فلم سمي النبي الأمي ؟ قال : " نسب الى مكة ، و ذلك قوله عز وجل : " و لتنذر ام القرى و من حولها "فام القرى مكة ، فقيل أمي لذلك " (٢) و قد جاء في حديث ماثور عن الامام الصادق (عليه السلام) : ان تسمية العرب بالاميين كان بسبب حرمانهم عن كتاب الهي ، و على هذا فان نسبة الرسول الى ذلك كان بسبب انتمائه الى ذلك القوم جغرافيا و نسبيا ، و ليس لانه شخصيا لم ينزل عليه الكتاب ، فقد نزل عليه احسن الكتب فكيف يكون أميا بهذا المفهوم ؟ و السؤال هنا : ما هو منهج الرسول في الاصلاح و السير بالانسان نحو الحضارة و الهدى ؟

[1]هـداية الناس الى الله عز وجل ، ببث آياته بينهم و بيانها لهم آية تلو آية ، و الذي من شانه تفجير الطاقات الخيرة الكامنة داخل النفس البشرية ، و من اهمها(١) القرطبي / ج ١٨ / ص ٩٢.

(2)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٣٢٢.

اسـتثارة العقل في البحث عن الطريق لان الآيات تبين معالم الطريق و هي اساس الهدى ، الا ان هنالك حاجة الى تتميمها بتذكرة الانسان بها مما يقوم به الانبياء) عليه السلام) ، و هكذا نهتدي الى ان اول ما يجب على الحركات الرسالية القيام به هو بث الثقافة الصحيحة بين الناس لكي يقتنعوا بالاصلاح و يتحسسوا ضرورته . و لعل الآية الكريمة تشير ايضا الى ميزة الرسالات الالهية عن الدعوات البشرية و هي كونها تبدا من الله لتنتهي اليه.

]يتلوا عليهم اياته[

[2]تطهير الناس من عقد النفس و اغلالها التي تمنع انطلاقهم نحو الهدى كما قال تعالى : " و يضع عنهم اصرهم و الاغلال التي كانت عليهم " (١) ، و لا يمكن لامة مثقلة بعقد الاحقاد و الاضغان ، و الاغلال و الحسد و الاستئثار ، و أصر الخوف و التهيبو الانطواء ، لا يمكن لمثل هذه الامة ان تنهض بمسؤولية الاصلاح و التقدم او ان تكون اهلا لوحي الله و هداه ، لذلك عمد الرسول (صلى الله عليه واله

) و هو ينشد النهضة بذلك المجتمع الى تطهيره من ادران الشرك و التخلف و الجاهلية.

]و يزكيهم[

قال ابن عباس : يجعلهم ازكياء القلوب بالايمان ، و قال بعضهم : يعني يأخذ زكاة اموالهم ، و هو بعيد.

- 3و اذا ما تفاعل المجتمع مع الآيات ، و اهتدى بها الى غاياتها ، و تزكى بها(١) الاعراف / ١٥٧.

و بتوجيهات المصلح ، اصبحت لديه القابلية العقلية و النفسية لتلقي تعاليم الرسالة و التفاعل معها ، و لعله لذلك تقدمت تلاوة الآيات و التزكية على التعليم.

]و يعلمهم الكتاب و الحكمة[

و الكتاب هو القران الذي كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) اول مفسر و مؤول لمعانيه ، و ما احوجنا و بالذات مجاميعنا العلمية ان نتعلم و نعلم كتاب الله الذي هو حبله و بابه الى الهدى و الفلاح . ان الرسول (صلى الله عليه وآله) طهر النفوس و العقول منالاغلال و العقد ، ثم راح يعلم الامة معاني الكتاب بعد تلاوته عليهم ، و يستخرج لهم منها مناهج الحياة ، في السياسة و الاقتصاد و الاجتماع و العسكرية ، حتى اصبح القران بديلا حضاريا شاملا عن المناهج الجاهلية الضالة بقضها و قضيضها . و اليوم حيث نريد العودةالى الاسلام باعتباره الحل الامثل للمشالك المعوزة التي لا تستطيع البشرية الفرار منها لا بد ان نعود من الباب الذي ولجه المعلم الاول للرسالة نبينا الكريم) صلى الله عليه وآله) ، فنشرع بآيات الله نتلوها على الناس ، و نذكرهم بربهم حتى ينصهروا جميعا في بوتقة الوحدة الربانية ، ثم نعلمهم كتاب ربهم حتى يتشبعوا بقيمه المتسامية ، و يتسلحوا برؤاه و بصائره ، و ينبعثوا من آياته في كافة تصرفاتهم و مواقفهم.

ليكن القران اهم مادة دراسية في مجاميعنا العلمية و مدارسنا و جامعاتنا و مراكز دراستنا حتى ننظر من خلاله الى كل شيء و نصبغ بصبغته كل عمل و موقف.

و حيث يريد الرسول لمن حوله ان يقودوا الحياة عمليا بالقرآن علمهم الحكمة ايضا ، ليحسنوا فهمه و تطبيقه على الواقع حسب اختلاف الظروف و تقدم الحياة و تطورها ، فبالحكمة تستنبط الحلول لمشاكل الحياة و مفراداتها . ولو كان الرسول(صلى الله عليه واله) يقتصر على تعليم نص القرآن للمسلمين و حسب دون ارشادهم لاصول الاجتهاد و منهاهجه لكانوا يقعون في مشاكل لا تنتهي.

و يبدو ان الحكمة الالهية تستوحى من الآيات المحكمة التي يرد اليها كل آيات القران و كل الحوادث الواقعة في الحياة ، ذلك لان محكمات القرآن هي التي تذكر الانسان بالقيم الفطرية المرتكزة في ضميره ، و تثير دفائن عقله بالحقائق الكبرى التي يعرفها بذاته بعد التبصير بها .. و بكلمة : المحكمات القرآنية هي مرتكزات العقل الانساني كالتوحيد و العدل و الحرية و المسؤولية و ما اشبه ، و هي التي تعتبر مصدار للتشريع الالهي ، كما يزعم المشرعون الوضعيون انهم يعتمدونها في تشريعاتهم.

و حينما يبلغ الانسان درجة متقدمة من الوعي بهذه المرتكزات ، و يعقلها عقل دراية ، و يتعمق في معرفتها ، هنالك يصبح فقهيا قد اوتي الحكمة ، و انئذ يستطيع ان يستنبط سائر احكام الشريعة منها ، كما يتمكن من اعتمادها في مواقفه السياسية و الاجتماعية المتغيرة.

و اعرف الناس بالحكمة ، و اقدرهم على استنباط الاحكام الفرعية منها ، و اوعاهم لبصائرها ، هو الجدير بحكم الامة ، لانه اقرب الى القرآن من غيره ، و لان القرآن هو الحاكم الاول في الامة الاسلامية ، و انما يمثله اوعى الناس له و اقرب الناس اليه..

لذلك فان الحكمة هنا تعني الولاية الالهية و القيادة الشرعية ، لانها وعاء الحكمة ، و عيبة المعارف الربانية ، و مرتكز البصائر القرآنية.

من هنا جاءت النصوص المأثورة عن ائمة اهل البيت (عليهم السلام) تفسر من جهة الحكمة بالولاية ، و تبين من جهة اخرى ان الحكمة هي التفقه في الدين.

قال الامام الصادق (عليه السلام) في تفسير قوله سبحانه : " و من يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا " : " طاعة الله ، و معرفة الامام " (١. (

و قال الامام الصادق (عليه السلام) في تفسير الآية ذاتها : " ان الحكمة المعرفة و التفقه في الدين ، فمن فقه منكم فهو حكيم ، و ما احد يموت من المؤمنين احب الى ابليس من فقيه " (٢. (

و روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) انه قال : " ان الله اتاني القرآن ، و اتاني من الحكمة مثل القران ، و ما من بيت ليس فيه شيء من الحكمة الا كان خرابا . الا تفقهوا و تعلموا و لا تموتوا جهالا " (٣. (

و في تفسير آخر مأثور عن الامام الصادق (عليه السلام) : " و الحكمة هي النجاة ، وصفة الحكمة الثبات عند اوائل الامور ، و الوقوف عند عواقبها ، و هو هادي خلق الله الى الله " (٤. (

و تكاد كلمات المفسرين في الحكمة تكون واحدة ، فقد فسرها مالك بن انس انها الفقه في الدين ، و قال بعضهم : و يعلمهم الحكمة فيدركون حقائق الامور ، و يحسنون التقدير ، و تلهم ارواحهم صواب الحكم و صواب العمل ، و قال آخر : الكتاب : الوحي ، و الحكمة : العقل، و قال آخر : ان الحكمة هي العلم الذي يعمل به فيما يجتبى او يجتنب من امور الدين و الدنيا..

و هكذا تتواصل تفسيراتهم للحكمة لتوضح انها بلوغ مستوى من علم الدين(١) نور الثقلين / ج ١ / ص ٢٨٧.

(2)المصدر.

(3)المصدر.

(4)المصدر / ص ٢٨٨.

يمكن الانسان من معرفة متغيرات الشرائع و هو الفقه.

بلى .لا يمكن فقه الاسلام بعمق من دون فقه الزمن ، لان حكم الله يختلف من حادثة لاخرى و واقعة و ثانية ، و انما اصبح الفقهاء مرجعا لاحكام الدين لانهم يعرفون الدين ، و يعرفون شروط الزمن و متغيرات الحوادث ، فيستنبطون احكامها منه ، و لذلك جاء في الحديث الشريف : " و اما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها الى رواة حديثنا. "

و هكذا كانت الحكمة هي العقل المزكى بالدين ، و هي لا تتأتى عادة الا بعد الالمام بسائر احكام الشريعة و قيم الوحي.

و لان القرآن اخر رسالة بعثها الرب الى عباده ، و هي التي تستمر حتى قيام الساعة برغم تطور الظروف ، فان البشرية احتاجت الى الحكمة المرتكزة في ائمة الدين لملاحقة المتغيرات.

و هكذا دعا ابراهيم (عليه السلام (ربه ان يبعث في العرب يعلمهم الحكمة و الكتاب ، فقال هو و ابنه اسماعيل " :ربنا و ابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم اياتك و يعلمهم الكتاب و الحكمة و يزكيهم انك انت العزيز الحكيم.. "

و استجاب الله لابراهيم و بعث النبي محمدا (صلى الله عليه واله و سلم) الى اولئك الاميين فجعلهم الله به في مستوى رفيع ، حتى قال في بعضهم الرسول (صلى الله عليه واله) : " علماء حكماء كادوا

ان يكونوا من الفقه انبياء " (١. (

]و ان كانوا من قبل لفي ضلال مبين [

(1)المصدر / ص ٢٨٨.

لقد بلغوا من الضلال ابعد مدى حيث اتسموا بالتخلف في جميع شؤونهم ، فمن وأد البنات الى قتل الاولاد ، و الى التناحر و التطاحن ، الى الفقر و المسكنة ، و هكذا كانت حركة الرسالة التي انقذتهم من تلك الوهدة العميقة حركة من خارج السياق التاريخي لمجتمعهم . ولو كانت مجرد تكامل طبيعي داخلي لما استطاعت القفز بهم الى تلك القمم السامقة و بتلك السرعة الخيالية..

[3]من غياهب ذلك التخلف البعيد و ذلك الضلال المبين تعالى ذلك الصوت الميمون يدعو العالمين الى ولادة جديدة ، الى الانبعاث من ضمير الجاهلية ، الى حياة الحضور الفاعل ، و سوف تتواصل امواج الملتحقين بالركب من شعاب الارض و على امتداد التاريخ لانها ليست دعوة مكية للعرب ، و لا دعوة قريشية لقريش ، و لا دعوة سياسية لذلك العصر . انها دعوة الهية تتجاوز الجغرافيا و العنصر و الزمن .. انما دعوة رسول الله رب العالمين الى الناس كافة..

و سوف تتزود المسيرة الحضارية من القيم التي جاءت بها ، و تظل تأخذ بيد الانسانية نحو الهدى و الخير ، كما تتزود من الخط الرسالي و القيادة الشرعية التي تشكل الامتداد الحقيقي للرسول قيادة و ذكرا ، و هو لا ينقطع في كل زمان و جيل ، حيث لا تخلو الارض من حجة الهية ، و لذلك يبقى الالتحاق بمدرسة النبي (صلى الله عليه وآله) مركبه مستمرا مدى الحياة . تنتشر رسالته و تتوسع امته بين الناس.

]و اخرين منهم لما يلحقوا بهم و هو العزيز الحكيم]من هم الاخرون الذين يتوقع التحاقهم بركب الرسالة ؟

قالوا :انهم سائر العرب الذين امنوا من بعد . و جاء في حديث مستفيض مأثورعن رسول الله انهم قوم سلمان الفارسي .. الحديث يقول : عن ابي هريرة قال : كنا جلوسا عند النبي (صلى الله عليه وآله) اذ نزلت عليه سورة الجمعة ، فلما قرأ : " و اخرين منهم لما يلحقوا بهم " قال رجل : من هؤلاء يا رسول الله ؟ فلم يراجعه النبي (صلى الله عليه و آله) حتى سأله مرة او مرتين او ثلاثا ، قال : وفينا سلمان الفارسي ، قال : فوضع النبي (صلى الله عليه وآله) يده على سلمان ، ثم قال : " لو كان الايمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء " (١. (

و جاء في حديث آخر عن الرسول (صلى الله عليه وآله) : " ان في اصلاب امتي رجالا و نساء يدخلون الجنة بغير حساب ، ثم تلا هذه الآية " (٢. (

و قد اختتمت الآية الكريمة باسمي العزيز و الحكيم لان لحاق الآخرين بمسيرة الامة الاسلامية ، و امتداد الرسالة فيهم عبر الزمن ، مظهر لهذين الاسمين ، اذ يعز الله بهم دينه بين الامم في سائر الازمان ، و تتجلى فيهم عزته بين الناس ، كما ان من حكمته انه لميجعل امتداد المؤمنين برسالته في المجتمع المعاصر للرسول و حسب ، انما جعله عبر الاجيال و الازمان ايضا ليبقى مشعل الحق يحمله اللاحقون بعد السابقين ، تتوسع بهم الامة و تستمر مسيرتها.

و من تجليات اسم الحكمة لربنا العزيز انه لم يخص الجيل المعاصر للرسول بفضل الاسلام بل جعل الآخرين شركاءهم في الفضل بقدر درجاتهم الايمانية و مساعيهم الحميدة ، وهو القائل " :كل نفس بما كسبت رهينة. "

[5 - 4]و تنتظم الآية الرابعة في هذا السياق لتلغي اي تصور محدود عرقي او قومي للرسالة بانها تخص اهل مكة او العرب فقط ، مؤكدة بان الهداية الى الحق(١) القرطبي / ج ١٨ / ص ٩٢.

(2)المصدر / ص ٩٣.

مكرمة إلهية يهبها الباري لمن يشاء من خلقه.

]ذلك فضل الله[

اما اللغة و اللون و الحسب و سائر الصفات و المقاييس المادية فليست فضلا بذاتها حتى يفتخر العربي على العجمي ، او الابيض على الاسود ، او ذي القرابة على البعيد ، كلا .. و حيث يختص هذا الفضل بالله عز وجل و هو صاحب الخيرة الذي لا يسأل عما يفعل فليس لاحدان يدعي اختصاصه به من دون الناس ، كما صنعت اليهود و النصاري ، و اختلقت لذلك الوانا من الفلسفات الشركية التي تصور الله مغلولا او رهن ارادات خلقه ، سبحانه عما يصف المشركون.

]يؤتيه من يشاء و الله ذو الفضل العظيم[

في انقاذ الناس من الجاهلية و الضلال المبين الى نعمة الطهارة و العلم و الهدى و ليس مازعمها البعض في تحليله للتغير الحضاري الذي حدث في تاريخ شبه الجزيرة بأنه راجع الى حالة من التكامل الطبيعي الذي يقع عند الامم ، كلا .. بل هو فضل الهي ، و ينفي قوله:
"يؤتيه من يشاء " ان التاريخ ليس بالضرورة في مسيرة هابطة ، كما زعم البعض اعتقادا منهم ان الجيل الاول يكون ابدا افضل الاجيال ، كلا .. ان ربنا ذو فضل عظيم ، فاي جيل في اي عصر و في اي بقعة اتجه الى الله عمه الله بفضله الكبير.

و هذه الآية من جهة اخرى مدخل لانعطاف السياق نحو الحديث عن اليهود ، الذين زعموا بان فضل الله (رسالته و رسله) خاص بهم ، و لم يتحملوا مسؤولية الرسالـــة ، انما راحــوا يتشبثون بالقشور ، و جعلوا مجرد اختيار الله لهم لرسالته فضل ،يفتخرون به ، و يتهربون باسمه من الالتزام بمسؤولياتهم .. بلى . ان رسالة الله فضــل عظيــم ، و لكن احدا لا يبلغ الفضيلة و الكرامة بها الا بالعمل و تحمل المسؤولية ، اما ان يكتفي العرب بمجرد ان الرسول كان منهم ، و ان الآيات تنزلت بينهم ، فانه امر خطير ينتهي بهم الى ما انتهى اليه اليهود من قبلهم فصاروا كما وصف الله تعالى:

]مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا]تحتوي العلم و لكنه لا ينتفع بها شيئا ، وفي هذا التشبيه دقة بالغة ، فان حمل الرسالة ليس باقتناء نصوصها في الجيب و رفوق المكتبة او بجمعها و حملها على الرأس و الكتف ، كلا .. و الا فالحمار اقدر على حمل عدد اكثر و وزن اكبر من اسفار الرســـالة ، انما حملالرسالة بتطبيقها و الالتزام بها في الحياة ، لانها قيم و ليست مادة . و لعل المثل موجه الى علماء السوء الذين لم يرعوا امانة العلم و الدين ، بل استغلوها في الوصول الى المصالح الشخصية و الشهوات ، لانهم ابرز مصاديق المحملين لمسؤولية الرسالة ، و ليس من احديشك في ان الانحراف الذي وصل اليه اليهود ، و لا زالوا مرتكسين فيه ، كان بسبب ادعياء العلم و الدين . او ليسوا اليوم يحاربون الاسلام باسم التوراة ؟ اوليسوا ينتهكون حرمة المسجد الاقصى باسم الدين و بفتاوى الاحبار ؟ ؟ او ليسوا يمارسون الظلم و الارهاب ضدالناس ؟ بلى . فليست التوراة اذن هي التي تملي عليهم ذلك ، لانها رسالة الله - رسالة الالفة و المحبة و السلام - ؟ ان الله كرم الانسان على كثير ممن خلق و فضله تفضيلا ، و لكن باي شيء ؟ هل بضخامة جسدة و قوته المادية ؟ كلا .. فان كثيرا من الاحياء اقوى منه جسدا و اكبر ، و لكن انما كرامة الادمي بالعقل و باتباع رسالات الله ، فماذا بقي لدعاة التوراة و هم يخالفون هدى العقل ، و يكذبون رسالة الله ، سوى ان يشبهوابالحمار ؟

]بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله[

و حيث انها النهج الذي يقود الانسان الى الصلاح و قيم الخير (الهدى) فقد ضلوا الطريق الى ذلك ، و تخبطوا في الضلال و الظلم ، و قد نظم الشعراء في هذا المثال شعرا لعل اطرفه قول بعضهم:

ان الرواة على جهل بما حملوا مثل الجمال عليها يحمل الودعلا الودع ينفعه حمل الجمال له و لا الجمال بحمل الودع تنتفع[و الله لا يهدي القوم الظالمين[

لماذا اعتبر هؤلاء من الظالمين ؟ يبدو ان السبب ان مثل هؤلاء - تجار الدين و ادعياء العلم - انما يتركون تطبيق روح الآيات ، و يكذبونها ، و يحرفونها عن مواضعها ، ليحصلوا على دراهم معدودات من المترفين و المستكبرين ، فيلحقون بهم عند الله ، و يعتبرون من الظالمين . و لان الله لا يهدي الظالمين فانهم يخرجون من اطار العلماء بالله ، و لا يمكن ان يكونوا سفراء بين الله و عباده المؤمنين ، و لا تكون اراؤهم حجة شرعية ، لانها تنبعث من وساوس الشيطان و ليس من وحي الرحمن ، و من هنا لا يعتبر الشرع المقدس الفقيه غيرالعادل فقيها ابدا.

[7 - 6]و لقد تورط اليهود في التكذيب و الظلم بالايات فكانوا مصداق مثل الله فيهم " كمثل الحمار يحمل اسفارا " ، و لكنهم سعوا للاحتفاظ بعلاقة ظاهرية مع رسالة الله ليستغلوا السذج من الناس باسمها ، فزعموا ان الدين حكرا عليهم ، و انهم وحدهم يمثلون الشرعية الدينية ، و ان من يجرؤ على الكلام فيفضائحهم انما هو مارق يجب قتله ، فهم من دون الناس شعب الله المختار ، بيد ان القرآن يضعهم امام محك وجداني ليفضح مزاعمهم ، بامتحانهم من خلال اعمق الصفات تجذرا في نفوسهم الا و هي حب الحياة و البقاء ، " و لتجدنهم احرص الناس على حياة و من الذين اشركوايود احدهم لو يعمر الف سنة " (١. (

]قل يا ايها الذين هادوا ان زعمتم انكم اولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين]و السؤال : هل يصلح هذا التحدي محكا لمعرفة صدقهم او عدمه ، فهب انهم سألوا الله الموت فهل يثبت ذلك انهم اولياء الله ؟ و نجيب ان هذا التحدي يحمل على ثلاثة معاني:

الاول : ان اليهود الذين باهلهم الرسول (صلى الله عليه واله) يومئذ كانوا يموتون لو تمنوا الموت تلك اللحظة ، قال رسول الله : " لو تمنوا الموت لماتوا عن آخرهم " (٢. (

الثاني : ان اولياء الله بصدق يموتون لو طلبوا منه لقاءه بالموت لثقل دعائهم في ميزانه عز وجل.

الثالث :ان التمني هنا مقياس من زاويته الوجدانية ، و ليس مجرد الحديث عنه ، بينما اليهود اشبعوا في قلوبهم حب الدنيا و حب البقاء بحيث لم يكن يتمنى احدهم الموت ابدا ، و ذلك بسبب كفرهم بالآخرة و علمهم بأنهم لا يملكون فيها شيئا ، و هذا مقياس يميز اولياءالله عن غيرهم ، فانه مكتوب في التوراة:

(1)البقرة / ٩٦.

(2)تفسير البصائر / ج ٤٦ / ص ١٨٧.

"اولياء الله يتمنون الموت " (١) ، و في الخبر عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : " جاء رجل الى ابي ذر فقال : يا ابا ذر مالنا نكره الموت ؟ فقال : لانكم عمرتم الدنيا و خربتم الآخرة ، فتكرهون ان تنتقلوا من عمران الى خراب " (٢) ، اما الاولياء الذين عمروا آخرتهم فهم يحبون الانتقال اليها ، و ليس اليهود كذلك.

]و لا يتمنونه ابدا بما قدمت ايديهم[

و كيف يتمنون الموت و هو الجسر الموصل الى لقاء الله و الجزاء من عنده و قد قدموا الخطايا و الذنوب ؟ ان اعمالهم و افكارهم تؤكد فيهم حب الدنيا و حب البقاء ، و من جانب آخر تكره لهم لقاء الله و الآخرة و اذا استطاعوا ان يخدعوا الناس بانهم اولياء لله ويخفوا حقيقتهم عنهم فأنهم لن يخدعوا الله ابدا.

]و الله عليم بالظالمين[

و اذا كانت هذه الصفة تصدق في سائر اليهود المنحرفين عن التوراة فانها اصدق في احبارهم الذين كانوا

متشبثين بحياة . آية حياة ، في مقابل اي ثمن ؟ حياة الذل و التبعية و المهانة ، و بثمن فقدان دينهم و عزتهم ، و ربما راحتهم . و اعوذ بالله عندما يصبح العالم جبانا ، فانه لا يجعل نفسه فقط تابعا ذليلا للجبارين ، بل و ايضا يجعل من اتباعه مجموعة ذليلة و خاضعة لكل حاكم ظالم ، و يرسم خطا انهزاميا تبريريا في واقع المجتمع بما يبثه من افكار سلبية و بما يحرفه من نصوص دينية.

و هذه السنة جرت في علماء اليهود و النصارى و في بعض علماء المسلمين الذين(١) تفسير القمي / ج ٢ عند الآية.

(2)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٣٢٤.

مازالـوا متسكعيـن على ابواب الملوك سرا و علنا ، يوقعون على جرائمهم بكل الاصابع ، و يكيلون لهم سيل الفتاوى الكاذبة انى شاؤوا ، و يزورون ارادة الجماهير ، و يحرفون نصوص الدين . انهم بحق قطاع طريق الله ، كما جاء في حديث قدسي ، و ان خطرهم على الاسلام اشدمن خطر الف سيف و الف بندقية ، " هم العدو قاتلهم الله انى يؤفكون " . و ليعلم هؤلاء انهم مهما خدعوا الناس او انفسهم فان الله عليم بهم ، و سيقدمهم للحساب حسب علمه سبحانه لا حسب خداعهم او التباسهم ، و سيلقيهم في الجحيم و هم مهانون.

] [8]قل ان الموت الذي تفرون منه فأنه ملاقيكم]و في الخبر خطب امير المؤمنين علي بن ابي طالب (عليه السلام) الناس فقال : " ايها الناس ! كل امـرء لاق في فراره ما منه يفر ، و الأجل مساق النفس اليه ، و الهروب منه موافاته " (١) ، و قال الصادق (عليه السلام) : " تعد السنين ، ثم تعد الشهور ثم تعد الايام ، ثم تعد الساعات ، ثم يعد النفس ، فاذا جاء اجلهم فلا يستأخرون ساعة و لا يستقدمون " (٢. (

و هكذا الانسان و كل حي لعلى موعد مع الموت ، و انما العمر مطية تحث بنا الخطى نحو ميعادنا المصيري ، و ان كل لحظة تمر بنا لهي تنتقص من اجلنا بقدرها ، فعلينا الا نحسب تقادم الايام طولا في اعمارنا ، فنقول مثلا فلان طويل العمر عمره سبعون عاما او ثمانون ،و انما الحقيقة انه انتقص من عمره هذا القدر . ثم هل ينتهي بالبشر المطاف عند الموت حتى يطلق لنفسه العنان ، و يسير في الحياة حيث يريد ؟ ! ! انما الموت قنطرة الى الحساب و الجزاء ، و المحاسب هو الله الذي لا يخفى(١) تفسير القمي / ج ٢ عند الآية.

(2)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٣٢٤.

عليه شيء ، اما الحياة الدنيا فانها ليست حياة اللهو و اللعب ، انما هي عرصة المسؤولية و الالتزام امام الله بما يأمر به و ينهى عنه.

]ثم تردون الى عالم الغيب و الشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون]و حري بالانسان الذي يواجه تحدي الزمن و الموت ان يتسلح بالايمان و العمل ، لانهما الطريق الوحيد لانتهاز فرصة العمر ، و اذا كان البشر عاجزا عن الفرار من الموت فهو لا ريب قادر على اختيار العاقبة الحسنى بالعمل الصالح ، الذي هو سفينة النجاة و الميزان الاوحد عند الله ، لا الحسب و النسب او الانتماء الظاهر.

[9]و هكذا مهد الله - بالآية السابقة - للحديث عن الجمعة و اعتبارها عيدا للامة ، و يؤكد استقلالها في شعائرها بالاضافة الى استقلالها في رسالتها عن الامم الاخرى ، كالنصاري و اليهود الذين لهم رسالتهم (التوراة و الانجيل) و عيدهم (السبت و الاحد) (١) ، و يعطي القرآن في هذه السورة صلاة الجمعة و يومها الموقع و المفهوم الحقيقي في منهج الاسلام ، فالجمعة على الصعيد الخارجي رمز الاستقلال و على الصعيد الداخلي رمز الوحدة و الائتلاف.

و من هذه الحيثيات و اخرى غيرها تأتي الدعوة الالهية بالسعي لصلاة الجمعة و ترك كل ما سواها لهوا او بيعا او ما اشبه من شؤون الدنيا ، و هكذا اصبح السعي الى الجمعة لدى بعض المسلمين (مذاهب

و علماء (امرا مفروضا باجماع الامة عند توافر شروطها ، و جاء في كتاب من لا يحضره الفقيه مروي : " انه كان بالمدينة اذا اذن المؤذن يوم الجمعة نادى مناد حرم البيع ، لقول الله : " آية الجمعة " (٢) . و قال(١) و هناك اشارات لهذه الفكرة في الاخبار : قال رسول الله (ص) : " كيف انتم اذا تهيأ احدكم الجمعة عشية الخميس كما تهيأ اليهود عشية الجمعة لسبتهم ؟ " تفسير البصائر / ج ٤٦ / ص ٣٤٥.

(2)نقله نور الثقلين / ج ٥ / ص ٣٢٥.

الامام الباقر (عليه السلام) يصف اهتمام الرعيل الاول من المسلمين بالجمعة " : و الله لقد بلغني ان اصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) كانوا يتجهزون للجمعة يوم الخميس " (١) ، و عن جابر بن عبد الله قال : " اقبل عير (جمال محملة) و نحن نصلي مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) فانفض الناس الهيا فما بقي غير اثنى عشر رجلا انا فيهم ، فنزلت الآية : " ١١ (2) " ، و قال الحسن ابو مالك : اصاب اهل المدينة جوع و غلاء سعر فقدم دحية بن خليفة بتجارة زيت من الشام ، و النبي (صلى الله عليه واله) يخطب يوم الجمعة ، فلما رأوه قاموا اليه بالبقيع خشية ان يسبقوا اليه ، فلم يبق مع النبي (صلى الله عليه وآله) الا رهط ، فنزلت الآية ، فقال (صلى الله عليه و آله) : " و الذي نفسي بيده لو انه تتابعتم حتى لا يبقى احد منكم لسال بكم الوادي نارا " (٣. (

الا ان كثيرا من فقهاء الاسلام اعتبروا وجود الحكم الاسلامي و الامام العادل شرطا لاقامة صلاة الجمعة ، و لعل ذلك مرتكز على كونها من الشعائر الدينية السياسية التي ينبغي ان لا ينتفع منها الظلمة في تضليل الناس و تمكين انفسهم ، فهي من اهم و ابرز المناسباتالتي يجتمع فيها المسلمون مما يسمح للطغاة اتخاذها منبرا جماهيريا لتضليل المجتمع ، و نحن نقرأ في التاريخ كيف اصبحت خطبها مركزا لحرب اولياء الله ، كما فعل ذلك الحزب الاموي تجاه الامام علي و اهل البيت)عليهم السلام) ، كما ترى اليوم كيف حول علماء السوءخطبتي الجمعة بوقا من ابواق الطغاة الى حد صاروا يتسلمون خطبهم من الحكومات نفسها ، و يستلمون لذلك الاجر.

(1)المصدر / نقلا عن الكافي.

(2)المصدر.

(3)المصدر.

و هكذا جاء في الحديث المأثور في كتاب الدعائم عن علي (عليه السلام) انه قال : " لا يصلح الحكم و لا الحدود و لا الجمعة الا للامام او من يقيمه الامام " (١. (

و هكذا روى سماعة في موثقة عن الامام الصادق (عليه السلام) قال : سألت ابا عبد الله عن الصلاة يوم الجمعة ، فقال : اما مع الامام فركعتان ، و اما من يصلي وحده فهي اربع ركعات ، و ان صلوا جماعة " (2) .

و في خبر مأثور عن الامام الرضا (عليه السلام) قال : " فان قال : فلم صارت الصلاة الجمعة اذا كان مع الامام ركعتين ، و اذا كان بغير امام ركعتين ركعتين ؟ قيل لعلل شتى ، منها : ان الانسان يتخطى الى الجمعة من بعد فاحب الله عز وجل ان يخفف عنهم لموضع التعب الذي صاروا اليه ، و منها : ان الامام يحبسهم للخطب ، و هم منتظرون للصلاة ، و من انتظر الصلاة فهو في صلاته في حكم التمام ، و منها : ان الصلاة مع الامام اتم و اكمل لعلمه و فقهه و عدله و فضله ، و منها : ان الجمعة عيد و صلاة العيد ركعتان ، و لمتقصر لمكان الخطبتين . فان قال : فلم جعل الخطبة ؟ قيل : لان الجمعة مشهد عام فاراد ان يكون للامام سبب الى موعظتهم ، و ترغيبهم في الطاعة ، و ترهيبهم من المعصية ، و توفيقهم على ما ارأد من مصلحة دينهم و دنياهم ، و يخبرهم بما ورد عليه من الامان من الاهوال التي لهم فيها المضرة و المنفعة . فان قال : فلم جعل الخطبتين ؟ قيل : لان يكون واحدة للثناء والتمجيد و التقديس لله تعالى ، و الاخرى للحوائج و الاعذار و الانذار و الدعاء و ما يريد ان يعلمهم من أمره و نهيه و ما فيه الصلاح

و الفساد " (٣. (

(1)موسوعة جواهر الكلام ج ١١ / ص ١٥٨ الطبعة الثانية.

(2)المصدر / ص ١٦٠.

(3)المصدر / ص ١٦٥.

و هكذا نقل العلامة الشيخ حسن النجفي اجماع الطائفة على اشتراط الامام العادل (الحاكم) حتى بلغ اربعين شهادة على هذا الاجماع (١) ، منها : قول الكركي : يشرك لوجوب الجمعة السلطان العادل و هو الامام او نائبه عموما او في الجمعة . باجماعنا (٢. (

و لكن السؤال : هل هذا الاجماع يدل على ان شرط وجوب الجمعة وجود امام عادل انى كان ام امام معصوم من اهل البيت) عليهم السلام) خصوصا ؟ يبدو لي ان القضية تتصل بموضوع الولاية العامة للفقهاء العدول ، فمن راى انهم امتداد لحكم المعصومين (عليهم السلام (ينوبون عنهم نيابة عامة ، و ان عليهم تطبيق كل واجبات الشريعة من اقامة الحدود و فرض الجهاد و الزكاة ، و . و . ، و الظاهر ان الجمعة ليست اعظم من اقامة الحدود ، و الدفاع عن حرمات المسلمين ، فهي الآخرى من شؤون ولي الفقيه الحاكم ، اما الذين لا يتصورون اقامةحكومة اسلامية في غيبة الامام المعصوم فانهم لا يرون الجمعة فيها ايضا لانهم في الاغلب يشترطون اذن الامام فيها ، و يعتبرونها من شؤونه كالحدود و القصاص و الجهاد.

بلى .مسوغ اغلب الفقهاء اختيار الجمعة بالمجتهد العادل او حتى بامام جماعة عادل في ظروف الحرية ، و مع عدم وجود حكومة اسلامية عادلة ، من هنا قال في المعتبر.

السلطان العادل او نائبه شرط وجوب الجمعة ، و هو قول علمائنا . و قال ابو حنيفة : يشترط وجود امام وان كان جائرا . و قال الشافعي : لا يشترط . ورده بان معتمدنا فعل النبي فانه كان يعين لامامة الجمعة - وكذا الخلفاء بعده - كما يعين للقضاء ، و كما لا يصحللانسان ان ينصب نفسه قاضيا من دون اذن الامام كذا

(1)راجع المصدر / ص ١٥٦.

(2)المصدر / ص ١٥٤.

امامة الجمعة . ثم قال : و هل للفقهاء المؤمنين - حالة الغيبة - و التمكن من الاجتماع و الخطبتين صلاة الجمعة ؟ اطبق علماؤنا على عدم الوجوب ، و اختلفوا في استحباب اقامتها فالمشهور ذلك " (١. (

و يــوم الجمعة يوم عيد للمسلمين و هو سيد الايام ، و ليلتها ليلة عبادة و تهجد ، و يندب فيها المزيد من الابتهال الى الله ، و الانشغال بالمستحبات ، و زيارة القبور لتذكر الموتى و الترحم عليهم و الاعتبار بمصيرهم ، و بالذات قبور ائمة الهدى (عليهم السلام) و مرقد سيد الشهداء ابي عبد الله الحسين) عليه السلام) ، و تجديد العهد مع الرسول و آل بيته و الامام الحجة) عليهم السلام) بالاستقامة على خط الرسالة.

كما ينبغي صلة الارحام ، و التوجه الى المساكين ، و التزاور مع الاخوان ، في هذا اليوم الشريف.

كما ينبغي محاسبة الذات لتجديد العزم على متابعة الخطط السليمة و مقاومة الانحرافات و الضلالات.

و عموما فان يوم الجمعة ليس يوم اللعب و اللهو و الانشغال بالتوافه ، و انما هي فرصة المؤمنين للتفرغ للعبادة و ذكر الله بخير الاعمال يومئذ حيث صلاة الجمعة المتميزة بفروضها و خطبتها و مظهرها الاجتماعي . و هذا نداء الله و دعوته للالتزام بها و اقامتها اذيقول:

]يا ايها الذين امنوا اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله و ذروا البيع](١) المصدر / ص ١٥٣.

فكل مؤمن اذن مكلف بالامتثال لهذا الامر الالهي مالم يمنعه مانع مشروع عند الله ، و حيث يدعو الله للصلاة جمعة كل اسبوع فان هذه الفريضة تبقى مقياسا لوحدة الامة و مصداقية ايمانها بنسبة التفاعل مع هذا التكليف بالرباني الحكيم.

و اذ ينادي الوحي المؤمنين بالسعي للفضيلة و ذكر الله - سعيا بالروح قبل الجسد - فلا بد لنا ان نتحرر من شتى الاصر و القيود التي تثقلنا و تشدنا الى الارض اولا ، انى كانت مادية او معنوية ، و هذه الفكرة تفسر لنا العلاقة بين الدعوة للسعي الى ذكر الله و بين الامر بترك سائر شؤون الدنيا كالبيع وقت صلاة الجمعة.

و قد افتى كثير من فقهاء المسلمين بحرمة البيع حينها ، بل قال بعضهم ببطلان العقد اساسا اذا صارت الجمعة واجبة لازمة بتوافر شروطها ، قال المحقق في الشرائع : ان باع (عند النداء) اثم و كان البيع صحيحا على الاظهر . ثم قال العلامة الشيخ حسن النجفي عن هذاالحكم : الاشهر بل هو المشهور نقلا و تحصيلا (١. (

و لعل الانسان يتحسس للوهلة الاولى الذي يقع فيها فكره على هذا الحكم الالهي انه يخالف مصالحه ، و لكنه اذا ما درسه من ابعاده المختلفة ، و ارتقى درجة في الوعي بحقائق الحياة ، و جده منطويا على خير الدنيا و الآخرة بالنسبة له ، كما وصف القرآن:

]ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون[

و من ذلك الخير وحدة المجتمع المسلم ، و ما يتلقاه من الوعي و الهدى في شؤون الدين و الدنيا حيث خطبتي الصلاة ، و كذلك التوفيقات الالهية التي يختص بها(١) الجواهر / ج ١١ / ص ٣٠٦.

المصلــين المستجيبين لدعوته . و هذه بعض الاخبار التي تبين جانبا من فضائل الجمعة:

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : " اف لرجل لا يفرغ نفسه في كل جمعة لامر دينه فيتعاهده و يسأل عن دينه " (١. (

و قال (صلى الله عليه واله) : " ان لكم في كل جمعة حجة و عمرة ، فالحجة الهجرة الى الجمعة ، و العمرة انتظار العصر بعد الجمعة " (٢. (

و قال الامام الباقر (عليه السلام) : " اذا كان يوم الجمعة نزل الملائكة المقربون معهم قراطيس من فضة و اقلام من ذهب ، فيجلسون على ابواب المسجد على كراسي من نور ، فيكتبون الناس على منازلهم الاول و الثاني حتى يخرج الامام ، فاذا خرج الامام طووا صحفهم ، و لا يهبطون في شيء من الايام الا في يوم الجمعة " (٣. (

و قال الامام الصادق (عليه السلام) : " ما من قدم سعت الى الجمعة الا حرم الله جسده على النار (و قال) : من صلى معهم في الصف الاول فكأنما صلى مع رسول الله (صلى الله عليه واله) في الصف الاول " (٤) و قال (عليه السلام : " و انكم تتسابقون الى الجنة على قدر سبقكم الى الجمعة ، و ان ابواب السماء لتفتح بصعود اعمال العباد " (٥. (

[10]و لان الاسلام جاء منهجا كاملا و شاملا لابعاد الحياة الانسانية جعله(١) تفسير البصائر / ج ٤٦ / ص ٣٤٣.

(2)المصدر / ص ٣٤٦.

(3)المصدر / ص ٣٤٣.

(4)المصدر / ص ٣٤٦.

(5)المصدر / ٣٤٤.

الله متوازنا في اصول و احكامه بحيث لا يتضخم بسببه جانب في حياة الانسان على حساب جانب آخر ، فهو منهج الدنيا و الآخرة ، و الدين و السياسية ، و الروح و الجسد ، و حيث تتكامل شخصية الانسان بالوصول الى المصالح المشروعة من جانب و بالتزام الواجبات المفروضةمن جانب اخر فقد دعاه الدين الى مصالحه جنبا الى جنب دعوته للالتزام بواجباته ، و لم يجعل فروضه بديلا عما يطمع اليه الناس من المصالح و التطلعات ، و لذا نجد القرآن فور ما يأمر بالسعي الى صلاة الجمعة يأمر بالانتشار لممارسة الحياة الطبيعية و بلوغ المآرب والاهداف ، و الحصول على الرزق و لقمة العيش . و ان الدعوة للصلاة يوم الجمعة و تحريم البيع حينها هي منهجية لتأسيس انتشار الانسان المؤمن لابتغاء فضل الله على هدى القيم و الايمان.

]فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض[

كل الى مقصده . و هذه الدعوة المنطوية على الامر بالسعي لشؤون الدنيا تهدينا الى ان الصلاة و العبادة ليست بديلا عن ممارسة الحياة الطبيعية و الاجتماعية ، كما فهمها بعض المتصوفة ، فالدين منهج لتوجيه الانسان و قيادة الحياة ، يجد الناس فيه فرصة للعبادة ومنهجا للسعي و العمل ، و قد قال الامام الصادق (عليه السلام) يفسر هذه الآية : " اني لاركب في الحاجة التي كفاها الله . ما اركب فيها الا التماس ان يراني الله اضحى في طلب الحلال . اما تسمع قول الله عز اسمه : " الآية " ارايت لو ان رجلا دخل بيتا و طين عليه بابه ثم قال : رزقي ينزل علي أكان يكون هذا ؟ اما انه احد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم ، قال الراوي قلت من هؤلاء ؟ قال : ... و الرجل يكون عنده الشيء فيجلس في بيته فلا ينتشر ، و لا يطلب ، و لا يلتمس حتى يأكله ، ثم يدعو فلا يستجاب له " (١) بلى . ان فضل الله و رزقه ينال بالسعي و العمل الحثيث من اجله ، لذلك يقول تعالى بعد الدعوة للانتشار:

(1)نور الثقلين / ج ٥ / ص ٣٢٧.

]و ابتغوا من فضل الله[

اي انكم حينئذ في موضع يرتجى فيه الفضل و الرزق او تجدون انفسكم امام فضل من الله تصيبون منه رزقكم.

]و اذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون[

و اهمية الاستمرار في ذكر الله للانسان حيث ينتشر في الارض و يبتغي من فضل الله انه يجنبه الانحراف و الوقوع في الاخطاء بسبب نسيان الله ، فان ذاكر الله لا يسعى نحو الحرام ، و لا يسلك الطرق الملتوية ، و لا يغش الناس و يضرهم ، فهو يرتجى له الصلاح و الفلاح.

و من اللطائف الواردة في هذه الآية انه تعالى قال : " فاذا قضيت الصلاة " ببناء الفعل للمجهول بينما يفترض ان يقول : فاذا قضيتم الصلاة ، و صلا بخطابه الآنف للمؤمنين ، الا ان هذه الصيغة للفعل تعطي

حرمة لوقت الصلاة بالذات ، بحيث يكون المفهوم انالبيع وقت صلاة الجمعة المستوفية شروطها حرام لمن شهد الصلاة مع المسلمين و لمن لم يشهدها عمدا ، و لو جاء التعبير للمعلوم : فاذا قضيتم الصلاة لكان الحكم منحصرا للمصلين فقط و لا يشمل غير المصلين.

[11]و بعد ان يرسم الوحي للمؤمنين الموقف المطلوب تجاه صلاة الجمعة - و هو السعي لذكر الله و ترك البيع وقتها - ينثني السياق القرآني لنقد ظاهرة الانفضاض الى شؤون الدنيا و تقديمها على الصلاة ، مما يشير الى وجود ضعف في الايمان لدى المجتمع ، و انخفاض فيمستوى التفاعل مع شعائر الدين و برامجه.

]و اذا رأوا تجارة او لهوا انفضوا اليها و تركوك قائما [خوف ان يفوتهم ذلك او يسبقهم الآخرون اليه ، و هذه الظاهرة تنطوي على هزيمة امام جموح النفس و ميلها العظيم للدنيا ، مما يكشف عن ضعف الايمان الذي يريده الاسلام مقدما و ما يتصل به على كل شيء في حياة ابنائه . و قد استفاد الفقهاء و المفسرون حكما باستحبابالوقوف اثناء خطبتي الجمعة من هذه الآية اذ وصفت الرسول قائما بعد الانفضاض . و عن ابي بصير انه سئل عن الجمعة : كيف يخطب الامام ؟ قال : يخطب قائما فان الله يقول : " و تركوك قائما " (١. (

و يعالج القران هذه الظاهرة السلبية التي تنم عن ترجيح التجارة و اللهو على حضور الصلاة ببيان ان ما عند الله الذي يتأتى بالتزام مناهجه خير من ذلك كله . و الاية نفسها فضح للاعتقاد بالتناقض بين الالتزام بالدين و بين الدنيا ، و الذي يقع فيه البعض عمليا فلا يرون امكانية الجمع بين الاثنين فيرجحون الدنيا باعتبارها الاجر المقبوض على الآخرة المؤجلة . و الحقيقة ان خير الالتزام بمناهج الله في الحياة ليس مقتصرا على الاخرة فقط ، بل يشمل الدنيا ايضا.

]قل ما عند الله خير من اللهو و من التجارة و الله خير الرازقين]فالذي يريد كل الخير معنويا و ماديا ، و في الدنيا و الآخرة " ما عند الله " فان سبيله اتـباع نهجه القويم ، و اي خير في تجارة لا تقوم على هدى الوحي و تقوى الله ؟ انها تزرع الطبقية المقيتة ، و الفقر ، و تسبب الانحطاط في الاقتصاد.

و في ترتيب كلمات الآية الكريمة ملاحظة جديرة بالالتفات ، ففي البداية عندما اراد الله بيان ظاهرة الانفضاض عن الصلاة قدم التجارة - و هي الاهم - على اللهو ، و ذلك ليبين مدى ترجيح البعض لامور الدنيا على شؤون الدين ، فهم ليس(١) المصدر / ص ٣٣٠.

تستخفهم التجارة و حسب بل يتأثرون بما هو ابسط و اقل شأنا منها و هو اللهو . و حيث اراد التأكيد على ان ما عنده افضل مما ينفض له الناس قدم الادنى على الاهم تدرجا ، فما عند الله ليس خيرا من الله بل حتى مما هو فوقه كالتجارة.

بلى . ان البعض و منهم التجار لا يلتزمون بالشعائر الدينية خشية الخسارة او ان تفوتهم ارزاقهم ، و لكن الله يؤكد لهم العكس و هو ان الصلاة و بالذات صلاة الجمعة تجلب الرزق ، باعتبارها صلة الانسان بضامن الرزق و معطيها ، بل بخير الرازقين.

سورة المنافقون

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

قال رسول الله - صلى الله عليه واله - : " من قراها برىء من الشرك و النفاق في الدين. "

ثواب الاعمال و عقابها / ص ٢١٠

لاطار العام

في هذه السورة يفضح الوحي خط النفاق في الامة ، و ذلك ببيان معالم مسيرتهم ، حيث التكلف في اظهار الايمان و الطاعة للقيادة الرسالية ، و العيش بوجهين و شخصيتين : احداهما التظاهر بالايمان المؤكد بالايمان و الاهتمام بالمظاهر الدينية و المظاهر المختلفة ، والاخرى الكفر العملي المبطن ، فهم يستنكفون الاعتراف بالقيادة و الذهاب اليها لتستغفر لهم ، و هكذا يصدون انفسهم عنها لاضعاف مركزها بشتى الطرق و الاساليب ، و من بينها الحرب الاقتصادية ضدها لفض الناس عنها و تعطيل مشاريعها . و لكن الآيات تتركز عند نقطة محورية هي موقفهم من الحياة الرسالية مبدئيا و نفسيا و اجتماعيا و اقتصاديا.

و يقف السياق في نهاية السورة ضد هذه الخطة الغادرة ليدفع المؤمنين نحو حركة معاكسة و مضاعفة ضد مكر المنافقين ، بدعوتهم لعدم التلهي بالاموال و الاولاد عن ذكـر الله و الجهاد في سبيله (كما يريد المنافقون) لما في ذلك من عظيم الخسارة ، و بتحريضهم من جهة اخرى على سبق الاجل بالانفاق من مال الله في سبيله ، بصورة تضعهم في سياق التحدي مع الموت و العدو ، سباقا معطياته (الاجلالقادم ، و الفرصة الوحيدة القليلة ، و المصير الحاسم ، فاما الانتماء للخاسرين حيث العذاب ، و اما الانتماء لفريق الصالحين حيث الجنة) ، و هكذا سبق لا يدخر العاقل فيه جهدا ، و لا يضيع فرصة ابدا.

و نقرا في آيات هذه السورة بيانا لجانب من ركائز النفاق كمخالفة القيادة الرسالية ، و الاستكبار على من حولها من المستضعفين و الفقراء ، و الاغترار بما عندهم من الاموال ، و هنا يطرح السؤال التالي نفسه : لماذا هذا الحديث العريض عن النفاق و المنافقين في كثير من مواضع القرآن الى حد يخصص الله سورة باسمهم ؟ و الجواب كما يبدو لي لثلاثة امور رئيسية:

الاول : لتحذير المؤمنين من خطر الوقوع في النفاق ، بالذات و ان المؤمن اقرب للتورط في مرض النفاق منه الى الكفر ، اذن فهو بحاجة لمعرفة حدود هذه المنطقة الخطرة ، و صفات اهلها ، و سبل تجنب الدخول فيها للخلاص من شرورها.

الثاني : لتوجيه اهتمام القيادة الرسالية و المجتمع الاسلامي الى خطر هذا الفريق على مسيرة الامة و مستقبلها.

الثالث :ثم ان تنوع الحديث عن النفاق في القرآن الكريم ضرورة يفرضها البحث في هذه القضية ، فالنفاق كما اعتقد هو انهزام الانسان امام الحقيقة ، فلا هو يقبلها باخلاص ، و لا هو يردها بصراحة ، و هذه الحالة تختلف باختلاف الحقائق ، فهناك نفاق يقع فيه الذينلا يؤمنون بالله عز وجل ، و اخر في مواجهة القيادة الرسالية ، بل هناك نوع منه في مواجهة بعض التشريعات الالهية.

و بتعبير آخر : النفاق هو الاتجاه المعاكس للايمان ، و باعتبار الايمان يمتد على مساحة الحقائق كلها فان النفاق يمتد بالتضاد على المسافة ذاتها ، و تناول القرآن لموضوع النفاق في سورة كثيرة يستهدف معالجته من جوانبه المختلفة علاجا شاملا.